الباب الثالث

السحب تتكاثف!

● تراكم الأزمات لا يجعل عددها بالأرقام ولكن بالتفاعلات، ومن ثم فهي تنتقل من علم الحساب إلى علم الكيمياء! ●

الفصل الأول

«دالاس» فى المنطقة!

[١]

استعد «جون فوستر دالاس» لزيارته للشرق الأوسط كما لم يستعد قط لأى مهمة أوكلت إليه فى مجالات العمل السياسى والدبلوماسى.

وكان يردد: «إن المنطقة هى نقطة الارتكاز فى العالم الحديث كله. وأوروبا الغربية التى كانت تتمسك بمفاتيحها، لم تعد قادرة - فى الظروف العالمية الجديدة وموازينها - أن تمسك بهذه المفاتيح. والقوى المحلية فى المنطقة لم تصل بعد إلى الدرجة التى تستطيع فيها أن تدافع عن منطقتها: وهذه القوى المحلية لها مطالب وطنية نستطيع أن نفهمها، ولكن خلافنا معها ليس حول مطالبها الوطنية، ولكن حول قدرتها فى الوقت الراهن على حماية نفسها، فنحن لا نريد أن نرى الروس فى عمق الشرق الأوسط وبالقرب من مصالح حيوية كبيرة لنا فيه، ولهذا فإن الرئيس «أيزنهاور» جعل الشرق الأوسط مجال أول مبادرة له فى السياسة الخارجية، وهكذا فإنه إلى حد كبير رهن سمعته الشخصية وسمعة نظامه فى سبيل تحقيق نوع من الاستقرار فى الشرق الأوسط. ثم إن الرئيس يعتقد أنه إذا استطاع تحقيق السلام فى هذه المنطقة فسوق يؤكد لنفسه مكانة فى التاريخ لم يبلغها أحد»(١).

---

(١) كنت واحدا من الذين سمعوا جون فوستر دالاس يقول هذا الكلام ويلح عليه، ويبدو وكأنه يريد من كل واحد من سامعيه أن يوافقه بغير تحفظ عليه. ولما كان جون فوستر دالاس فى الأصل سليل أسرة من القسس، فقد كان إلحاحه يحمل صبغة تبشيرية، وقد نظر إلىّ فى نهاية حديث قصير ألقى علىّ فيه موعظته ثم أضاف ملوحا بسبابته: «يجب أن تؤمنوا».

وقد كانت درجة استعداد «دالاس» لمهمته عالية، فهو لم يكتف بقراءة الملفات بدأب ودقة محام دولى، ولم يكتف بحضور الاجتماعات الممتدة ساعات بعد ساعات، وإنما أضاف إلى ذلك مجموعة لقاءات فى اللحظة الأخيرة أراد بها أن يقيس درجة حرارة الأطراف فى هذه اللحظة!

فقد قابل السفير المصرى «أحمد حسين» قائلا له: إنه يطلب نصيحته، واندفع «أحمد حسين» بطلبات متلاحقة عن ضرورة مساعدة مصر فى مفاوضاتها مع الإنجليز، وتقديم المعونة الاقتصادية لها وكذلك السلاح. وبعد المقابلة فإن «دالاس» قال لـ«هنرى بايرود» مساعده الذى كان يحضرها معه: «يظهر أن السفير المصرى رجل غبى». وكرر «دالاس» نفس الوصف للسفير المصرى فى مقابلة لاحقة له مع السير «روجر ماكينز» السفير البريطانى. والحقيقة أن «أحمد حسين» لم يكن غبيا كما وصفه «دالاس»، وإنما كان سياسيا تقليديا من الجيل الوسيط الذى ظهر فى مصر فى تلك الظروف، وهو جيل بدا له العمل السياسى مزيجا من العلاقات العامة والخاصة. ومن شأن هذا المنهج فى العمل السياسى أن أصحابه يعوضون نقص الحجة الموضوعية بالإلحاح على الطلب، كما أنهم فى غياب تحديد عام للمصالح المشتركة مع الطرف الذى يوجهون جهودهم إليه يخلطون بين الصداقة الخاصة وبين المصالح المشتركة. وفى قياس النتائج فإنهم يقعون فى خلط آخر فيحسبون أن اتساع الحركة يعنى قوة التأثير. وقد استغل «أحمد حسين» فى هذا الاجتماع مسألة الخطر الشيوعى، وأنه «إذا لم تتحرك أمريكا بسرعة لمساعدة مصر فإن الخطر الشيوعى سوف يطبق». وقد كانت هذه هى النقطة التى «اصطاده» منها «دالاس». فقد سأله «على من سيطبق الخطر الشيوعى؟» ووقع «أحمد حسين» فى الفخ حين رد بسرعة «على مصر». وكان رد «دالاس»: «إذن فهذه مشكلتكم قبل أن تكون مشكلة غيركم، وعلى أى حال فهذا هو المجال الذى نعرض عليكم أن تتعاونوا فيه معنا».



وكان الزائر الثانى لـ«دالاس» هو السير «روجر ماكينز»، ولهذا فإن تفاصيل مقابلة وزير الخارجية الأمريكى للسفير المصرى كانت بعد حية فى ذهنه وهو

يقابل السفير البريطانى. وقد علق «ماكينز» على ما قاله له «دالاس»: إنك رأيت بنفسك أسلوبهم فى التعامل والغريب أنهم يطلبون منا أن نقبل شروطهم وإلا فإنهم يهددونا بالانتحار فى أحضان الاتحاد السوفيتى». واستطرد السير «روجر ماكينز» يزود «دالاس» بنصائحه قائلا له: «إنه لا ينبغى على الولايات المتحدة أن تشجع المصريين، وإنما لابد لها أن تتحدث معهم بشدة، بحيث يبدو أن الموقف الأمريكى هو نفسه الموقف البريطانى، وأن المصريين لا يستطيعون ضرب الحليفين الكبيرين أحدهما بالآخر».

وكان السفير الإسرائيلى فى واشنطن «أبا إيبان» - الزائر الثالث - متشائما، فقد قال لـ«دالاس» إن «هناك سؤالين يلحان عليه طول الوقت:

١ - كيف يمكن للإنجليز أن ينسحبوا من مصر دون تسوية سلمية موقع عليها من مصر وإسرائيل؟

٢ - ماذا يحدث على الخطوط بين مصر وإسرائيل إذا انسحب الإنجليز بدون تسوية تضبط المواقف؟».

وكان «أبا إيبان» يحمل معه رسالة من «موشى شاريت» وزير خارجية إسرائيل، يفوض فيها «دالاس» فى أن ينتهز فرصة وجوده فى القاهرة ليسأل المصريين عن شروطهم للسلام مع إسرائيل. وعندما قال «دالاس» إن الخبراء الأمريكيين ينصحونه بعدم فتح موضوع إسرائيل فى أول زيارة له فى المنطقة، كان رد «أبا إيبان» أن «هذه النصيحة تفوح منها رائحة البترول».

وكان السفير الفرنسى - الزائر الرابع - ممرورا، فقد عاتب «دالاس» لأن «فرنسا أهملت فى موضوع الاتصالات مع مصر، مع أنها كانت تستطيع أن تساعد فيها بوزنها التاريخى ورصيدها الثقافى»، ثم قال «إننا كنا نتسقط المعلومات لأن الأطراف النشيطة فى الاتصالات - الإنجليز وأنتم - رفضتم أن تصارحونا بشىء، فى حين أن الموضوع يهمنا عمليا من ناحية شركة قناة السويس ومركزنا فيها، ومركز هذه الشركة فى مصر فى نفس الوقت. ثم إن السويس هى أقرب طريق إلى

فيتنام، فضلا عن أن المصريين يثيرون لنا متاعب كثيرة الآن فى شمال أفريقيا».

وكان السفير الفرنسى هو الآخر يحمل رسالة فى جيبه من الرئيس «أوريول» إلى الرئيس «أيزنهاور» وقد سلمها لـ«دالاس».



ولم يكن «دالاس» قد دعا شركة قناة السويس ليسمع رأيها، ولكن شركة قناة السويس دعت نفسها إلى مكتبه، فقد اتصل به صديق قديم له وللرئيس «أيزنهاور» أيضا، وهو المستر «سبوفور» الذى كان فى وقت من الأوقات سكرتيرا عاما لحلف الأطلنطى، ثم استخدمته شركة قناة السويس - بعد مجىء «أيزنهاور» إلى البيت الأبيض - مستشارا خاصا لها فى واشنطن. وقد رتب «سبوفور» اجتماع غداء بين «دالاس» و«شارل رو» رئيس شركة قناة السويس.

إن شركة قناة السويس - التى بدأت فرنسية، ثم اختارت الحماية البريطانية بعد أن علا نجم بريطانيا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى - وجدت نفسها الآن مضطرة لأن ترفع العلم الأمريكى. وهكذا بدا «شارل رو» فى الغداء مع «دالاس» «**رعية أمريكية**» تهمه مصالح الولايات المتحدة قبل غيرها. وقد بدأ «شارل رو» فشرح لـ«دالاس» أن «الملكية الأمريكية فى أسهم شركة قناة السويس ارتفعت من ٤,٥٪ قبل الحرب العالمية الثانية إلى ١٦٪ بعدها، ومازالت تزيد». ثم راح يقول «**إن قناة السويس هى أقصر وأقرب طريق للرحلة من نيويورك إلى هونج كونج إلى ليفربول عن طريق قناة بنما. وهكذا فإن مصير القناتين واحد**»(١).

ثم دخل «رو» فى شرح طويل ملخصه: «إن المصريين يطمعون فى شركة قناة السويس، ويحلمون بالاستيلاء عليها فى اللحظة التى تنتهى فيها حماية القاعدة العسكرية الإنجليزية لها.

والمشكلة أن المصريين لا يستطيعون إدارة هذا المرفق الذى ينظرون إليه فى

---

(١) مجموعة وثائق الخارجية الأمريكية - مذكرة أملاها «جون فوستر دالاس».

حسد، ولا يستطيعون حمايته أو حتى حماية العاملين فيه إذا بدأ «الغوغاء» يقومون بمظاهراتهم التقليدية فى مصر».

ثم قال «رو»: «إننا كنا نستأجر من الأسطول الإنجليزى ـ بالثمن ـ مدمرة حراسة تقوم بهذا العمل، والشركة تفكر الآن ـ وإذا ما تأكد انسحاب الإنجليز من القاعدة ـ فى تأجير باخرة تضع عليها قوة من المتطوعين المسلحين الأوروبيين، بحيث تقف فى بورسعيد لتكون جاهزة برجالها للتدخل إزاء أى خطر، لكننا نخشى من أن المصريين قد لا يعطون لهؤلاء المتطوعين تأشيرات دخول إلى أراضيهم».

ثم أضاف «رو»: «الأكل نفسه هو أكبر فاتح للشهية، وإذا تمكن المصريون من أكل القاعدة فسوف تتفتح شهيتهم لأكل الشركة». ثم ختم «رو» شرحه بطريقة مسرحية قائلا: «سيدى الوزير إن السويس ليست عبدان، فعبدان ركن قصى فى الخليج الفارسى لم يره أحد، ولكن بورسعيد فى قلب البحر الأبيض، والقناة هى وريد الدورة الدموية للبترول فى العالم(١).

وتوجه «جون فوستر دالاس» إلى مطار واشنطن فى طريقه إلى القاهرة على رأس وفد يضم المستر «هارولد ستاسن» المستشار الخاص لـ«أيزنهاور» و«هنرى بايرود» مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأوسط.

[٢]

أمام الصحفيين فى مطار القاهرة أدلى المستر «جون فوستر دالاس» بتصريح قال فيه: «إن الإدارة الأمريكية الجديدة للرئيس «أيزنهاور» تهتم اهتماما جديا بالدفاع عن الشرق الأوسط، وقد ناقشت هذا الأمر مع الحكومة البريطانية على أساس مبادئ تم التوصل إليها من قبل مع إدارة الرئيس ترُومان. كذلك فإننا ناقشنا هذا الموضوع وما يتصل به مع الحكومة المصرية وممثليها فى واشنطن والقاهرة.

---

(١) تشبيه «شارل رو» لقناة السويس بأنها الوريد فى الدورة الدموية للبترول شاع بعد ذلك وتكرر استعماله، وقد ورد بنصه كما هو فى أحد خطابات «إيدن» أيام الغزو الثلاثى.

إن الولايات المتحدة مهتمة برفاهية هذا الجزء من العالم، وقد توصلت لاقتناع بأنه لابد من التوصل إلى حل يضمن السيادة المصرية الكاملة ويؤكد الجلاء المرحلى للقوات البريطانية عنها، على نحو يحفظ أهمية منطقة القناة وقاعدتها، بحيث تظل صالحة للعمل السريع للدفاع عن العالم الحر فى حالة نشوب حرب».

وهكذا وقع «جون فوستر دالاس» فى أول خطأ له فى مصر مع أول خطوة له على أراضيها. ففى مساء هذا اليوم كان عليه أن يسمع من «جمال عبدالناصر» أنه يعترض على تعبير جاء فى تصريح «دالاس»، وليس من شأنه أن يعزز حسن النية المطلوب بين الطرفين فى هذه المرحلة. وأبدى «دالاس» دهشته، وقال «جمال عبدالناصر» إنه «**يقصد تعبير لصالح العالم الحر**» الذى ورد فى التصريح». ثم استطرد يقول: «إن هذا التعبير يستدعى إلى الذاكرة المصرية على الفور ما كان يقوله الإنجليز من أنهم يحتلون مصر «لصالح الدفاع عن العالم الحر». وهكذا فإن أى ترتيب دفاعى يتحدث عنه «دالاس» بهذا المفهوم ووفق هذا التعبير سوف يبدو للمصريين على الفور وكأنه نفس الاستعمار القديم تحت اسم جديد.

وحاول «دالاس» أن ينفى أن ذلك كان قصده، ورغبة فى طمأنة «جمال عبدالناصر»، فقد أصدر متحدث رسمى باسم وزير الخارجية الأمريكى توضيحا جاء فيه «**أن وزير الخارجية لم يقصد استعمال تعبير العالم الحر بأى معنى من المعانى التى أثقلت هذا التعبير خلال المرحلة الاستعمارية فى الشرق الأوسط**».

لكن الشكوك كلها لم تنم!



كان رأى «جمال عبدالناصر» أن المحادثات مع «جون فوستر دالاس» لابد أن تتم بأقصى درجة من الصراحة، بحيث لا يكون هناك مجال لسوء فهم، فأى سوء فهم فى العلاقات المصرية ـ الأمريكية سوف يبقى معنا طويلا. فهذه ـ على حد قوله للدكتور «محمود فوزى» فى آخر جلسة بينهما استعدادا للمحادثات مع «دالاس» ـ «علاقة فى بدايتها، وليس كما هو الحال مع الإنجليز علاقة فى نهايتها، ولابد لنا أن

نضع أنفسنا على الطريق الصحيح من أول خطوة، وإلا فسوف نجد أنفسنا نبتعد أكثر عن هدفنا فى كل خطوة نخطوها. وسوف نخطئ فى حق أنفسنا إذا نحن تركنا هذه العلاقة الجديدة تمارس كما مورست العلاقات القديمة بين مصر وبريطانيا».
ووافق الدكتور «فوزى» بتحفظ، وكان تحفظه: «نعم. ولكن ليس إلى الحد الذى يصدم أو يقفل الأبواب».

وطالت المحادثات مع «دالاس» لمدة سبع ساعات، ما بين اجتماع رسمى واجتماع غير رسمى، عقد فى بيت ا لسفير الأمريكى المستر «جيفرسون كافرى» بعد دعوة على العشاء.

وكان «دالاس» هو المتكلم الرئيسى فى الوفد الأمريكى، وكان كل من «هارولد ستاسن» و«هنرى بايرود» يتدخل أحيانا بسؤال أو استفسار(١).

وخلال المحادثات دخل «دالاس» إلى موضوعه بأن عبر عن سعادته لوجوده فى مصر واهتمامه تاريخيا وسياسيا بشعبها، ثم نقل تحية من الرئيس «أيزنهاور» وأمانى طيبة له، ثم أشار إلى دور مصر فى المنطقة. ثم حدد لنفسه ما يكاد أن يكون جدول أعمال يغطى النقاط كلها، وكانت خطوطه على النحو التالى:

١ ـ المفاوضات مع الإنجليز.

٢ ـ الدفاع عن الشرق الأوسط.

٣ ـ العرب وإسرائيل.

٤ ـ المساعدات العسكرية والاقتصادية للمنطقة ولمصر بالذات.

وعن المفاوضات مع الإنجليز قال «دالاس» إنه لا يريد أن يتدخل فى مجرى المفاوضات. «لكننا نريد أن نساعد على دفع تقدمها، خصوصا وأنها قد توقفت وتعثرت قبل أن نجىء ببضعة أيام».

---

(١) سجلت محضرا شبه كامل للاجتماع الذى عقد بعد العشاء فى بيت كافرى ـ على ظهر نسخة من البيان الذى ألقاه دالاس فى مطار القاهرة، ولم أجد فى جيبى ليلتها ورقة أخرى غيره.

«ونحن فهمنا موقفكم عندما اعتذرتم لنا عن قبولنا كطرف مستقل معكم ومع الإنجليز فى هذه المفاوضات. وربما أن حساسيتكم لم يكن لها ما يبررها، ولكننا كنا على استعداد أن نتفهم».

ثم قال «دالاس»: «وفى رأينا أنه فى المشاكل الدولية فإن أى طرف لا يحق له أن يقصر اهتمامه على مرحلة واحدة دون أن يمد بصره إلى المرحلة الطبيعية التى تليها، وهو إن كان يقدر رغبة المفاوض المصرى فى عزل مفاوضات الجلاء عن مفاوضات الدفاع، فإنه يلح فى أن يتفهم الطرف المصرى أن هناك علاقة قوية بين الموضوعين. فخروج البريطانيين من القاعدة لا يلغى دور هذه القاعدة فى الدفاع عن الشرق الأوسط كجزء من العالم الحر. إننى استغربت فى الصباح قلقكم من كلمة «العالم الحر»، ولم أكن أدرك أن هذه الكلمة محملة بمواريث ثقيلة، ولذلك سارعت بإصدار توضيح تمسكت فيه بتعبير «العالم الحر»، وحاولت فى نفس الوقت أن أفصله عن مواريثه القديمة».

ثم انتقل «دالاس» إلى البند الثانى وهو الدفاع، وقال: إنه «لا يحتاج إلى شرح مطول لحقيقة المطامع السوفيتية فى المنطقة ويكفيه أن يدلل - كما قال - على ذلك بالمحاضر السرية للوفاق الألمانى الروسى الذى سبق الحرب العالمية مباشرة. ففى شروط هذا الوفاق كان أهم مطالب الاتحاد السوفيتى **هو أن يسمح له بمد نفوذه فى المنطقة المتجهة عموما صوب الخليج الفارسى**». والحقيقة - على حد قول «دالاس» - «إن الروس طامعون فى السيطرة على العالم، وأن الشعوب الحرة يجب أن تنظم نفسها مع حلفائها لكى تتصدى لهذا الخطر الداهم».

وانتقل «دالاس» إلى البند الثالث وهو إسرائيل فقال: «إنه لا يريد أن يدخل الآن فى تفاصيل هذا الموضوع المعقد، ولا أن يبحث أسباب الحق والظلم فيه، ذلك لأن اهتمامه بهذا الموضوع الآن هو لتأثيره على أمن الشرق الأوسط، لأنه إذا بقى الشرق الأوسط مشغولا بنزاعات فى قلبه فسوف يستحيل عليه أن يكرس الجهد والوقت الضروريين لمواجهة الخطر الخارجى السوفيتى».

وأخيرا وصل «دالاس» إلى البند الرابع وهو المساعدات العسكرية والاقتصادية، فقال: إنه يعتقد «أن المنطقة بحاجة ماسة إلى هذه المساعدات، والقضية أن هذه المساعدات لا تستطيع أن تعطى فائدتها الكاملة إلا فى منطقة يسودها نوع من الاستقرار».



وتحدث اللواء «محمد نجيب» الذى كان يرأس الوفد المصرى رسميا «عن أمانى الشعب المصرى وآماله، وعبر عن رغبته فى إقامة العلاقات المصرية الأمريكية على أسس سليمة، لأن أمريكا ليست من الدول الاستعمارية، وإنما هى قاتلت فى الحرب العالمية الأولى والثانية دفاعا عن حرية الشعوب، كما جاء فى نقط «ويلسون» الأربع عشرة التى أعلنت بعد الحرب العالمية الأولى، وميثاق الأطلنطى الذى أعلن فى وسط الحرب العالمية الثانية».

وتحدث الدكتور «محمود فوزى» عن المحادثات المتعثرة مع الإنجليز وعن نقط الاتفاق ونقط الخلاف.

واختص «جمال عبدالناصر» بموضوع الدفاع[(١)].

وأبدى «جمال عبدالناصر» تسليمه بضرورة الدفاع عن الشرق الأوسط، واقتناعه فى نفس الوقت بأن أهل المنطقة هم الذين يستطيعون الدفاع عنها، ويحق لهم بعد أن يحددوا ضرورات أمنهم أن يستعينوا فى ذلك بمن يشاءون.

والمشكلة أنه فى هذه المرحلة «فإن العرب لا يرون أمامهم خطرا على أمنهم غير خطر الاستعمار الذى يسيطر على أراضيهم منذ القرن التاسع عشر وقبله. وفى حالة مصر فإن الاستعمار البريطانى فرض سيطرته المطلقة لأكثر من سبعين عاما، وليس من المعقول أن نقفز فجأة فنقول لشعبنا أننا اكتشفنا له عدوا جديدا هو الاتحاد السوفيتى، فى حين أنه لم يتخلص بعد من عدوه القديم وهو الاحتلال البريطانى.

---

(١) المحضر الرسمى للجلسة، وهو محفوظ بأرشيف مجلس الوزراء.

وربما قيل لنا: إن هناك خطرا سوفيتيا محتملا، لكن لدينا استعمارا بريطانيا واقعا، ومن الطبيعى أن همنا يجب أن يتركز على الواقع، وأما المحتمل فإن له وقتا آخر خصوصا عندما تظهر أمامنا احتمالاته. ونحن لا نستطيع أن نخلط الأمور بدعوى استباق الحوادث وضرورة ربط كل خطوة بالخطوة التى بعدها كما قال المستر «دالاس». فهذه مسألة نفسية إلى جانب كونها مسألة عملية، ولو ذهبنا إلى الشعب المصرى وإلى غيره من الشعوب العربية، وقلنا إن القواعد البريطانية على أرضنا أنهت دورها فى خدمة الاستعمار البريطانى الذى عرفناه، وأنها الآن تبدأ دورا جديدا للدفاع عن الشرق الأوسط ضد خطر سوفيتى لا نعرفه - وإنما هو محتمل - فإن شعوبنا سوف تسخر منا. وسوف يكون لها الحق إذا ظنت بأن كل ما نحن بصدده هو استبدال علم مسيطر بعلم مسيطر من لون آخر، أى أننا سنستبدل علما بريطانيا بعلم قيادة متحالفة غربية. وإذا قيل لنا أننا سوف نكون أعضاء على قدم المساواة فى التحالف الجديد فإن الشعب المصرى لديه من الذكاء ما يجعله يكتشف أننا نخدعه لسببين: أولهما لأن أحدا لم يثبت أمامه أن الاتحاد السوفيتى خطر عليه حتى الآن، والثانى أن حكاية المساواة لها قصة فى التاريخ المصرى الحديث، فقد كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ تعطى لملك مصر حق استخدام كل المنشآت والتسهيلات بما فيها الموانى والمطارات فى الجزر البريطانية نفسها فى مقابل حق ملك إنجلترا لنفس الشىء فى مصر. وملك مصر بالطبع لم يستخدم ولم يكن ليستطيع أن يستخدم هذه الحقوق المخولة له على قدم المساواة بنصوص المعاهدة! ولكن ملك بريطانيا استخدم مصر كلها قاعدة لجيوشه. وحلقة على طريق مواصلات إمبراطوريته، ومصدرا للتهديد ضد الشعب المصرى نفسه. ببساطة لا نستطيع أن نقول للشعب المصرى أن يدير بصره عن احتلال قائم لأراضيه على بعد مائة كيلو متر من عاصمته، لكى يركز اهتمامه على خطر آخر محتمل وغير مؤكد على بعد آلاف الكيلومترات من حدوده. إذا قلنا له بذلك فسوف يفقد الثقة بنا، وهذا هو الذى يفتح الباب للخطر الشيوعى فعلا وواقعا».

واستطر «جمال عبدالناصر» يقول: «إن خبرته العسكرية تجعله يعتقد أن

الحروب العالمية مضى زمانها، وأن القنبلة الذرية خلقت أوضاعا جديدة وموازين تختلف تسرى أحكامها على العالم كله. فالجيش السوفيتى لن يتقدم بعد خطوطه الحالية لأنه يعلم أنه إذا فعل ذلك فسوف تكون النتيجة حربا عالمية. لكن الشيوعية بالطبع مستعدة للتقدم كعقيدة وبالطبع فإن لها رغباتها فى الانتشار العالمى وحتى السيطرة، ولكن طريقها لن يكون طريق الزحف العسكرى، وانما سيكون طريق النفاذ إلى الجبهات الداخلية للشعوب لإثبات أن قياداتها الوطنية عاجزة عن تحقيق الاستقلال وعن تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. ولذلك فإن الاحتلال تحت أى اسم هو الذى يفتح الباب للشيوعية. والتخلف عن التنمية هو الذى يفتح الباب للشيوعية، والإحساس بالتخلى عن الإرادة الوطنية، داخليا وخارجيا، هو الذى يفتح الباب للشيوعية. وليس معنى ذلك أننا نترك المنطقة بغير دفاع، ولكننا نرى أن وسيلة الدفاع الحقيقية موجودة فى ميثاق الضمان الاجتماعى العربى وكل ما يحتاج إليه هذا الميثاق هو إعادة تنظيمه وإعادة تسليحه، ليكون هو الكفيل بعد ذلك بالدفاع عن المنطقة وأهلها. ومن منظور أمنهم ومصالحهم وفى هذه الحالة فإن الشعوب العربية كلها سوف تعى وتعتبر أن الدفاع هو بالفعل دفاع عن النفس وبالحق وليس الحق الذى يراد به باطل».

وكان «دالاس» يسمع مندهشا.

وكان «جيفرسون كافرى» منهمكا فى رسم خطوط ودوائر متقاطعة على ورقة أمامه وبدا مستغرقا بالكامل فيما يفعل.



وبعد العرض العام الذى قدمه «دالاس»، والرد العام المقابل له، والذى قدمه «جمال عبدالناصر»، بات واضحا أن المواقف الرئيسية للأطراف قد تحددت. ودارت بعد ذلك مناقشات عامة حول أطراف الموضوع، فقد سأل «دالاس» عن تفاصيل نقط الخلاف الجوهرية فى المفاوضات المصرية البريطانية؟ وتولى «جيفرسون كافرى» شرح مواقف الطرفين فى هذه النقط الخلافية، ثم شارك عدد من أعضاء الوفد

المصرى فى إبداء بعض الملاحظات. وسأل «دالاس» عن العلاقات بين الدول العربية، ثم سأل عما إذا كان فهمه صحيحا بأن ميثاق الضمان الجماعى موجه ضد إسرائيل؟ ورد «جمال عبدالناصر» بأن هذا الميثاق موجه ضد أى نوع من أنواع العدوان تتعرض له الأرض العربية، وهو يشك فى أن اسم إسرائيل قد ورد أصلا فى نصوص الميثاق. فقد قصد به العرب أن يكون درعا دفاعيا لهم ضد أى مصدر تهديد. وسأله «دالاس» عما إذا كان يعتبر أن المنطقة معرضة لتهديدات أخرى غير التهديد السوفيتى؟ ورد «جمال عبدالناصر» **بالإيجاب فهناك الاحتلال الإمبراطورى القديم وهو لا يزال قائما فى بلدان عربية عديدة ومن بينها مصر، ثم إن هناك تهديدا آخر تمثله إسرائيل التى لا يكف قادتها عن المناداة بفرض السلام، وهذا يعنى الحرب لأن السلام لا يفرض، وإنما يصل إليه الأطراف باقتناعهم فإذا تحدث أحد عن فرضه فمعنى ذلك أنه لا يتحدث عن الإقناع وإنما يتحدث عن السلاح، وسأل «دالاس» «ولكن أليس السلام مع إسرائيل هو طبيعة الأمور؟» ثم ضحك وقال: «الذى أعرفه أنهم ساميون مثلكم وأبناء عم لكم ثم إنهم تعرضوا لويلات كثيرة أيام هتلر» ورد** «جمال عبدالناصر» بأن **«تلك كلها قضايا معقدة، فإسرائيل الآن خليط من حوالى تسعين جنسية وأصولهم السامية موضع شك كبير، وعلى فرض أنهم ساميون فانهم تصرفوا بمنطق الغزاة، وفرضوا على العرب الفلسطينيين أسوأ ما تعلموه من اضطهاد النازى، فقد احتلوا نصف وطن عربى وحولوا أصحابه الأصليين إلى مواطنين من الدرجة الثانية».** ثم تساءل «جمال عبدالناصر» **ما إذا كان يعقل أن تقوم بهذه الطريقة، وفى وسط أرض الآخرين دولة غريبة تقطع اتصال العالم العربى مشرقه من مغربه، مع اعتقاد العرب على الناحيتين أنهم ينتمون إلى أمة واحدة».**

واستفسر «دالاس» عما «إذا كان صحيحا أن إسرائيل قطعت امتداد العالم العربى إلى قسمين لا اتصال بينهما؟»! وقال «جمال عبدالناصر» إن **«نظرة على أى خريطة كفيلة بإظهار هذه الحقيقة».** وتساءل «دالاس» عما **«إذا كان ذلك يعنى استحالة السلام بين العرب وإسرائيل؟»** ورد «جمال عبدالناصر» بأنه **«لا يستطيع أن يرى كيف يمكن أن يتحقق السلام على أساس الأمر الواقع». ثم استطرد «ومع ذلك فإن إسرائيل ليست شاغلنا الآن، وأنا واحد من الذين يعتقدون أن إسرائيل بالنسبة لنا**

قضية داخلية. إن خطرها يبدو جسيما لأننا مختلفون فإذا استطعنا تعويض التخلف بالتنمية والتقدم فإن الموازين تعدل نفسها تلقائيا». وسأل «دالاس» عن مشروع السد العالى، وقال: «إن المشروع لفت نظره لضخامته ولكنه يتصور أن دراساته لم تستكمل بعد. وعلى أى حال فهو مشروع مثير للخيال».

واتجه الحديث بعد ذلك إلى الحديث عن مشروعات أخرى للتنمية غير السد العالى. وقدم له «جمال عبدالناصر» عرضا سريعا للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى مصر وإلى قيام الثورة وطموحاتها. وسأله «دالاس» عما «إذا كان خطر الغزو السوفيتى لا يؤرقه؟» وقال «جمال عبدالناصر»: إن «حقائق موازين القوة تقول لى: إن الاتحاد السوفيتى لن يهاجمنا بالجيش الأحمر، وإذا أراد أن يفعل ذلك فعليه أن يجتاح كل الشرق الأوسط من القوقاز إلى شمال أفريقيا، وأى حركة فى هذا الاتجاه تعنى الاتجاه نحو حرب عالمية». وسأل «دالاس» «لماذا إذن غزوا تشيكوسلوفاكيا؟» وقال «جمال عبدالناصر» أن «تشيكوسلوفاكيا فى إطار أمنهم كما حددته اتفاقية يالطا، ثم إن الجيش الأحمر كان على أراضيها بالفعل أو على حدودها، وهذا وضع يختلف عن وضعنا». وسأل «دالاس» عن الشيوعية وخطر الشيوعية؟ وقال «جمال عبدالناصر» أن «الخطر الحقيقى هو التخلف والتبعية فهما اللذان يعطيان للشيوعيين الذخيرة التى يحاربون بها. وأما فى بلد ينمى نفسه ويسعى إلى التقدم وإلى العدل الاجتماعى، لا يسلم نفسه لأى سيطرة أجنبية فإن الخطر الشيوعى لا يجد لنفسه فيه موطئ قدم». وقال «دالاس»: إنه «فهم أن الإسلام يعادى الشيوعية». ورد «جمال عبدالناصر» بأن الإسلام لا دخل له بالشيوعية فهو شأنه شأن أى دين سماوى أكبر وأبقى من كل النظريات السياسية والاقتصادية». وسأل «دالاس» «ألا تستطيعون استخدامه فى محاربة الشيوعيين؟» ورد «جمال عبدالناصر» بأن «هناك مقولة مأثورة فى الإسلام تصف الجوع بأنه كافر، وهكذا فإن الفقر يحارب بالتنمية وبالعدالة الاجتماعية، وليس باستعمال الدين ضد طبيعة دعوته».

ثم أشار «دالاس» إلى مشروع أمريكى بتقسيم مياه الأردن بين الدول المشتركة

على حوض النهر، وأن إسرائيل لديها مشروعات مستقلة، وأن هذه المشروعات إذا نفذت من جانب واحد قد تؤدى إلى احتكاكات، وقد فكروا فى حل للمشكلة. ورد الدكتور «فوزى» بأن «نهر الأردن لا يجرى فى مصر، ومع ذلك فإن مصر مهتمة بما يجرى فى حوضه، وهى بالفعل ترى أن قيام إسرائيل بمشروعات منفردة عليه قد يؤدى إلى مشاكل ومصر على استعداد فى هذا الصدد أن تستمع إلى أى مقترحات بناءة»(١).

[٣]

من الصعب جدا، وحتى بعد مرور كل هذه السنوات على الأحداث، أن يقطع أحد برأى حول الانطباع الذى خرج به «جون فوستر دالاس» من زيارته لمصر. ومع ذلك فإنه يمكن القول، وعلى ضوء وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، أن مجرى الأفكار الرئيسى لـ«جون فوستر دالاس» بعد زيارة القاهرة كان على النحو التالى:

١ - إن المصريين يشعرون بالثقل الشديد للتجربة الاستعمارية مع بريطانيا، وإن هذا الثقل لا يترك لهم المجال الكافى لرؤية المستقبل رؤية واضحة. ومن المهم ألا يرتبط الدور الأمريكى الجديد فى الشرق الأوسط فى أذهان المصريين أو العرب بالتجربة مع بريطانيا.

٢ - إن المصريين لديهم حجة معقولة، من وجهة نظرهم، فى عدم الربط بين جلاء الإنجليز عن بلادهم واشتراكهم فى الدفاع عن الشرق الأوسط ضمن تحالف غربى. وفى الوقت الذى يتعين فيه تفهم دوافعهم إلى الفصل بين المسألتين، فإن الولايات المتحدة عليها أن تكون مستعدة لتبصيرهم بضرورات المستقبل.

٣ - إن خير وسيلة لذلك هى أن تقوم الولايات المتحدة بدور نشيط فى تحريك قضية

---

(١) كان مشروع تقسيم مياه الأردن من أفكار مجموعة «ألفا» كما سبق الإشارة فى صفحة (٢٧٧) من هذا الكتاب.

المفاوضات فإذا اطمأن المصريون إلى أن المفاوضات مع بريطانيا بمساعدة أمريكا تواصل طريقها، فإن ذلك قد يفتح عيونهم.

٤ - إن القيادة العسكرية المصرية التى قابلها فى القاهرة بدت له مختلفة عن طراز العسكريين الذين يعرفهم من أمريكا اللاتينية. فالمصريون أكثر نقاء ولكنهم حتى الآن أكثر سذاجة. ولقد أعجبه بعض منطقهم فى تصور الخطر الشيوعى من الداخل، كذلك أثر فيه طموحهم إلى مشروعات كبيرة كسد أسوان العالى، ولكن عليهم أن يتعلموا أن هناك مخاطر من الخارج تتربص بهم وأنهم لا يستطيعون وحدهم تحقيق مشاريعهم الطموحة، وليس هناك من يقدر على مساعدتهم غير الولايات المتحدة وعليهم أن يفهموا ذلك ويعوا نتائجه.

٥ - إنهم يحتاجون إلى بعض الوقت لكى «يتطوروا» وربما كان من الأوفق أن يكون هناك سفير أمريكى جديد يحل محل المستر «جيفرسون كافرى» الذى أبلغ «جون فوستر دالاس» بأنه الآن يريد أن يعتزل. وقد فكر «دالاس» فى سفير يستطيع أن يتفاهم مع «جمال عبدالناصر» الذى بدا له الزعيم الحقيقى لمصر. ويكاد «دالاس» أن يكون قد اختار سفيره فى القاهرة، وهو مازال بعد فيها، فقد التفت ذات مرة إلى «هنرى بايرود» مساعده لشئون الشرق الأوسط وقال له: «هانك.. أظن أن هناك كثيرا هنا تستطيع أن تقوم به». (كان «هنرى بايرود» أكبر بسنوات قليلة من «جمال عبدالناصر» وكان فيما سبق جنرالا فى الجيش، ومنصبه الحالى كمساعد لوزير الخارجية فى الشرق الأوسط كفيل بإقناع المصريين أن الولايات المتحدة تبعث إليهم بسفير على مستوى العلاقات التى تريدها معهم).

٦ - وأخيرا فإن «جون فوستر دالاس» اعتبر ملاحظة الدكتور «محمود فوزى» عن مشروع مياه الأردن و«إريك جونستون» بادرة توحى بالرغبة فى التعاون.



ولم تكن الحكومة البريطانية سعيدة بما تسرب إليها من نتائج محادثات «جون فوستر دالاس» فى القاهرة، رغم أن وزير الخارجية الأمريكى عقد فى القاهرة

اجتماعا مع السفير البريطانى فيها السير «رالف ستيفنسون» شارك فيها الجنرال البريطانى السير «بريان روبرتسون».

كان هناك إحساس بريطانى بأن ما قيل لهم كان أقل مما حدث فعلا.

وفى لندن - وكان «ونستون تشرشل» لا يزال يقوم بأعمال وزير الخارجية البريطانية - بدا نوع من القلق. وكتب «ونستون تشرشل» إلى «سلوين لويد» وزير الدولة للشئون الخارجية مذكرة يقول له فيها:

«لا يخالجنى شك فى أن المستر دالاس ترك لدى المصريين انطباعا بأنه سوف يقوم بمبادرة من نوع ما بشأن مفاوضات قناة السويس فور عودته إلى واشنطن. وأنا لا أعرف بعد أى نوع من المبادرة يفكر فيها، ولكنى أخشى أن الأمريكيين لن يخفوا أبدا اعتقادهم بأننا لن نستطيع تحقيق كامل مطالبنا فى مصر. وهناك خطر حقيقى من أن المستر دالاس قد يحاول أن يضغط علينا لنقبل ما هو أقل. ومن الضرورى على هذا الأساس أن نعيده ونبقيه دائما على الخط. ولذلك فأنا أرجوك أن تطلب من ماكينز أن يتحدث مع بيدل سميث، ويشرح له مخاوفنا، وأن يظل اتصالنا مفتوحا باستمرار مع الرئيس ومباشرة. إن الرئيس أقرب إلى أن يفهم ضرورة احتفاظنا بالقاعدة وبالسيطرة والقيادة على منشآتها، وبالتالى فإن تأييده لنا يحقق مصالح الغرب على خير وجه ممكن».



ولم يكتف «تشرشل» بذلك فقد خشى أن يتوه نداءه فى سراديب البيروقراطية الإنجليزية أو الأمريكية، وهكذا جلس يكتب خطابا شخصيا إلى الرئيس «أيزنهاور» جاء فيه:

[«صديقى العزيز:

١ - إننى أتطلع إلى حديث طويل عن مصر معك حى نلتقى فى بيرمودا[١]

(١) اجتماع قمة للحلفاء كان محددا له ديسمبر ١٩٥٣ فى جزيرة بيرمودا.

ولكن لأهمية هذا الموضوع فإنى رأيت أن أضع بعض خواطرى تحت تصرفك فى هذه الرسالة السريعة.

٢ - إننا حاولنا أن ننسق مواقفنا معكم سواء فى عصر سلفكم أو فى عصركم، ولم يكن هدفنا من هذا التنسيق أن نورطكم فى التزامات عسكرية أو مالية، وإنما حاولنا أن نجدكم بجانبنا فى مواجهتنا للدكتاتورية المصرية.

٣ - إننا بذلنا كل جهد للوصول إلى اتفاق مع المصريين وأوضحنا لكم أننا لا نريد من الولايات المتحدة أن تقوم بدور الوسيط أو الحكم، لكن «الدكتاتورية المصرية هى التى «غسلت أيديها» كما يقولون من المفاوضات معنا، وقت قطع المفاوضات مع قرب زيارة مستر «دالاس» للقاهرة. وقد راحوا يواصلون حملة من التهديد والعنف تزايدت أخيرا، والواضح أن الهدف منها هو الضغط علينا وعليكم، ونحن ننصح بالصبر والتماسك فالوقت ليس ضدنا. وعندما يعود المصريون إلى صوابهم ويفهمون أنه ليس فى استطاعتهم تخويفنا فإننا سنكون على استعداد للعودة لمائدة المفاوضات.

٤ - إن موقف الولايات المتحدة له أهمية كبرى فى هذا الصدد، فإذا فهمت «الدكتاتورية المصرية» أنكم تؤيدونها ضدنا أو تشجعونها فى مطالب مستحيلة ،فإن ذلك سوف يكون ضارا ليس بنا وحدنا، ولكن بكل مصالح الحلفاء.

صديقك: ونستون»]

وبعد أيام تلقى «ونستون تشرشل» ردا على خطابه من «أيزنهاور»:

[«عزيزى ونستون:

شكرا جزيلا لك على رسالتك، لكن هناك فقرات فيها لم أستطع فهمها وأعتقد أنه قد يكون مفيدا أن نتركها لحديثنا المباشر فى بيرمودا. أرجوك ألا تسىء الظن بنا هنا، ولا تتصور أننا نتخلى عنكم أو نبدى تهاونا فى تقدير مصالحكم. إن تصريحات

فوستر فى القاهرة لابد أن تطمئنكم، ولعلمك أيضا فإنه أخطر المصريين أنهم لا يستطيعون الحصول على سلاح منا طالما لم يتوصلوا هم وأنتم إلى اتفاق بينكم.

أيزنهاور»]



ولم يكن فى هذا الرد المقتضب ما يكفى لطمأنة «ونستون تشرشل» فقرر أن يبعث اللورد «سالسبرى» ومعه الجنرال السير «بريان روبرتسون» إلى واشنطن ليبحثا مع «جون فوستر دالاس» رسميا نتائج زيارته للقاهرة.

ولم يسترح «سالسبرى» إلى كثير مما سمعه من «جون فوستر دالاس»، ففى إحدى جلسات المحادثات بين الطرفين فى إحدى قاعات الاجتماعات الملحقة بمكتب الوزير فى مبنى وزارة الخارجية الأمريكية قال «دالاس»:

«إنه يريد أن يتعرض للجو العام الذى أحس به فى المنطقة. فإن بعض أعضاء الوفد الأمريكى تولد لديهم الانطباع بأن المسلك البريطانى تجاه الدول العربية، ومصر بالذات، ينطوى على كثير من الإيحاء بالسيطرة الغربية، وأن الإنجليز يتصرفون هناك على أساس أن القوة هى الوسيلة الوحيدة لإقناع هؤلاء الناس بحل المشاكل، وأنه يكفى إعادتهم إلى رشدهم بمجرد ضربهم أو ركلهم». ثم قال دالاس: «إننا بالطبع نقدر التجربة البريطانية فى الشرق الأوسط، ولكن بما أننا الآن داخلون فى الأمور إلى حد ما فمن الحق أن يسمح لنا ببعض الحرية فى العمل، وألا نعامل كمجرد متفرجين. ونحن ندرك أسباب قصورنا، ولكنه يخطر ببالنا أننا نستطيع أن نقوم بدور ما فى تخفيف المشاعر المعادية للغرب فى المنطقة وهى مشاعر قد تدفع أصحابها لقبول الشيوعية. وباختصار فإننا نرى أننا متفقون معكم فى الأهداف ولكن قد نختلف فى الوسائل، وهذا طبيعى لأن التجربة الاستعمارية لا تؤثر علينا». ثم أضاف دالاس: «إن من الضرورى بذل كل جهد لاستيعاب مصر فى الدفاع عن الغرب لكن المصريين لن يتخلوا عن شكاواهم وإحساسهم بالظلم إلا إذا خلصوا أنفسهم من النفوذ البريطانى وتفتحت عيونهم على مخاطر غيره».

وخلال هذه المحادثات فى واشنطن عرف اللورد «سالسبرى» أن الولايات المتحدة تفكر فى عقد صفقة أسلحة محدودة فى مصر، وأنها تدرس مشروع السد العالى بقصد البحث فى إمكانية الاشتراك فى تمويله. وأنها قد تفكر فى تأخير الإعلان عن ذلك إذا ما استؤنفت المفاوضات مع مصر، ففى هذه الحالة قد تؤثر تأخير الإعلان.



واستؤنفت المفاوضات فى القاهرة، ولكنها راحت تتعثر.

وكان «أنتونى إيدن» قد شفى من مرضه وعاد لمباشرة أعماله. ولكن «تشرشل» كان لا يزال يتابع المفاوضات عن قرب ويلاحق «إيدن» بمذكراته المكتوبة. وكانت المذكرات لا تعكس فقط غلو «تشرشل» الاستعمارى، وإنما كانت تعكس أيضا ضيقه من «أنتونى إيدن» الذى شفى من مرضه وعاد يطالب برئاسة الوزارة. وفى ١١ ديسمبر ١٩٥٣ كتب «تشرشل» إلى «إيدن» مذكرة نصها(١):

[«وزير الخارجية:

١ - إن المخرج من كل متاعبك، فى مصر وفى قناة السويس وفى السودان وفى جنوب السودان وفى الشرق الأوسط كله، ليس فى الكلمات ولكن فى الأعمال. وفى الإقدام على الفعل وليس بإمضاء المعاهدات.

أى أمان سوف نجده مع المصريين الذين ألغوا معاهدة سنة ١٩٣٦ التى وقعتها معهم بنفسك فيما مضى، وما هو ضمانك لمعاهدة أخرى توقعها معهم اليوم؟ على العكس إننى واثق أن الأمور سوف تتعقد بيننا بسبب السودان، وإذا حدث أن ضعفت قوة الحامية البريطانية فى قاعدة قناة السويس فإن العداء ضدنا سوف يزيد، ولن يكون لدينا الوسائل الكافية لاحتلال القاهرة وغيرها. وكلما أجلنا المواجهة فإن حجم قواتنا فى القاعدة سوف يقل، وسوف نجد أنفسنا فى وضع أضعف، وسوف يقف كثيرون فى حزبنا يقولون «ألم نحذركم من ذلك».

---

(١) صور مذكرة «تشرشل» منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٠٠).

٢ ـ دعنى أقل لك الآن كيف ينبغى أن تتصرف بطريقة شاملة وحاسمة؟ حاول أن تجد سببا ما لإرسال كتيبتين من المشاة، وثلاثة أو أربعة أسراب من الطائرات إلى الخرطوم. ويستطيع الحاكم العام أن يقول أن دواعى الأمن العام اقتضت هذا الإجراء، وربما كان له أن يضيف أننا لا نقصد بذلك الرجوع فى اتفاقية الحكم الذاتى للسوادن، ومع ذلك فإن علينا أن نفعل هذا الشىء بالذات، نفعله ولا نتكلم عنه.

٣ ـ إن المفاوضات مع مصر فى هذه الحالة سوف تنقطع أو تؤجل، ولابد أن نقول للمصريين وقتها: إننا لن نقبل منهم شروطا جديدة، وإنه إذا حدثت أضرار مادية لمصالحنا فإن تكاليفها جميعا سوف تخصم من أرصدتهم الإسترلينية. وأنهم إذا حاولوا المساس بمواقعنا فى منطقة القناة فإننا لن نهرب خارجين من مصر، وإنما سوف نتصرف بحزم طبقا لما تمليه مصالحنا.

ونستون»]

وبعد أيام قليلة عاد «تشرشل» إلى الضغط على «إيدن» فأرسل إليه الخطاب التالى(١):

[« ١ ـ إنك تحدثت إلىّ عدة مرات عن قطع المفاوضات مع مصر، والتصرف بعد ذلك كما نشاء، وقد كانت أفكارى إلى وقت طويل تتجه إلى هذا الخط، وأقترح أن نضع شروطنا النهائية أمام المصريين، ونقول لهم أن أمامهم شهرا واحدا لقبولها. إن مثل هذا الإنذار سوف يجعلهم يفهمون أننا نتكلم جدا، ثم إن آثاره فى ا لشرق الأوسط، خصوصا فى العراق، سوف تكون بعيدة المدى.

٢ ـ لقد طلبت من الأمريكيين أن يتوقفوا عن تقديم أية مساعدات لمصر، لأن مساعدتهم الآن من شأنها أن تزيد عنادهم، ولدىّ ما يحملنى على الاعتقاد

---

(١) نص خطاب «تشرشل» إلى «إيدن» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٠١).

بأن الأمريكيين قد يفعلون ذلك، وفى ظل هذا الموقف الأمريكى فإننا نستطيع أن نقول للمصريين: إن الشروط التى قدمناها لهم لمدة شهر لن تعود قائمة بعد ذلك. وبالتالى فإننا نستطيع أن نستعيد حريتنا كاملة فى الحركة تجاههم، وفى كل الأحوال، فإننا سوف نستعيد هذه الحرية. وإذا قبل المصريون شروطنا فإننا نكون قد أرغمناهم على ذلك، وإذا لم يقبلوها فإن أحدا لن يستطيع لومنا إذا وصلنا إلى آخر المدى.»].

الفصل الثـانى

فوران فى العالم العربى!

[١]

لم يكن «جمال عبدالناصر» بالطبع على علم بما يجرى فى كواليس الحكم فى لندن، ولكنه كان يرى آثاره على هذه الناحية فى منطقة قناة السويس، حيث راحت القيادة البريطانية تتصرف بما يوحى بأن العملية «روديو» «RODEO» محتملة فى أى وقت. وكان تقديره للموقف أن مصر فى حاجة إلى سياسة حازمة ومرنة فى نفس الوقت.

فمن ناحية كان مقتنعا بأن أى تراجع فى مواجهة التهديدات البريطانية الكامنة والماثلة - معناه أن مصر سوف تقبل بقواعد اللعبة كما تضعها لندن. وكان ذلك فى رأيه أمرا لا يمكن قبوله أو السماح به.

ومن ناحية أخرى فقد كان يرى الأخطاء المحتملة إذا ما تصاعدت المواجهة:

● كان يرى خطر إقدام البريطانيين فى منطقة القناة على عزل قوات سيناء وغزة عن قوات الجيش الرئيسية فى القاهرة والدلتا.

● وكان يرى خطر إقدام الإنجليز على قطع إمدادات البترول من معامل تكرير البترول فى السويس عن القاهرة وبقية محافظات مصر، وذلك إذا ما تعقدت الأحوال فى منطقة قناة السويس، وقرر الإنجليز أن يقدموا على هذا الإجراء كعملية ضغط على الحكومة فى مصر.

● وكان يرى خطر إقدام الحكومة البريطانية على إصدار أمر بتنفيذ العملية «روديو» «RODEO» واحتلال القاهرة والإسكندرية والدلتا. فمثل ذلك الوضع سوف يكون عبئا ثقيلا على الشعب المصرى وعلى الجيش، ومن المستحسن تجنبه إلا إذا لم يعد من ذلك مفر.

وهكذا وضع خطة «للمقاومة المحسوبة» كما كان يسميها. وبمقتضى هذه الخطة فقد اختار بنفسه مجموعات العمل الفدائى التى تتولى إزعاج الإنجليز وإرباك القاعدة تحت قيادة ضباط قريبين منه وتحت إشرافه المباشر.

كانت خطته هى القيام بعمليات محدودة ضد قوات الاحتلال وضد القاعدة، ولابد أن يكون معيارها متوازنا وأسلوبها جديدا، بحيث تؤدى إلى اختلال توازن قوات الاحتلال دون أن تصل بها إلى حد اليأس الذى يدفع بأصحابه إلى المغامرة. وكان يرى بتجنب قتل الأفراد كلما أمكن، ومن هنا تركزت هجمات الفدائيين المصريين على خطوط المواصلات وعلى شبكة الاتصالات. وأما فيما يتعلق بالأفراد فقد كانت السياسة المتبعة هى تخويفهم وليس إزهاق أرواحهم. وجرى تركيز على «الملونين» ضمن قوات الاحتلال ومعظمهم من جنود «الموارشيوس» و«الجوركا» وكانت هناك جهود مكثفة للاتصال بهم وإقناعهم بالابتعاد عن الخطر. وبالفعل فإن أعدادا منهم تركوا الخدمة فى قاعدة قناة السويس، وسهلت لهم السلطات المصرية فرصا للعودة إلى بلادهم، كما أن بعضهم فر من الخدمة بمعدات كانت معه أو بأوراق كانت فى متناول يده.

وأما فيما يتعلق بالجنود الإنجليز نفسهم، فقد اتخذ أسلوب يعتمد بالدرجة الأولى على خطف أعداد من ضباطهم ثم إبقائهم فى بعض المخابئ السرية لأسابيع أو شهور، وفى الوقت الذى تثور فيها الضجة فى إنجلترا حول خطفهم وتنشر الصحف، وتتوالى الاحتجاجات الرسمية على القاهرة. كانت الأمور ترتب بحيث يتم تسفير هؤلاء الضباط فإذا هم يظهرون فى لندن نفسها على غير انتظار.

وأدت هذه الخطة وأساليبها المتنوعة إلى إرباك شديد للقوات البريطانية ولقياداتها، فإن قاعدة عسكرية بهذا الحجم وبهذا الاتساع لم تكن تستطيع أن تعمل

وتؤدى مهمتها بكفاءة إلا فى جو طبيعى تستطيع فيه كافة مرافقها أن تتعاون معا بكفاءة، لا يمكن أن تتحقق فى جو من التوتر والخوف.

وكان تجنب قتل الأفراد عاملا هاما فى التأثير على الروح المعنوية فى القاعدة فقد أحس كل ضباطها وجنودها أن الخطر محيط بهم، ولكنه لا يستهدفهم شخصيا وبالتالى فقد كان من الصعب تعبئة الشعور فى القاعدة ضد المصريين، بل على العكس فإن جو التوتر والقلق مع الإحساس بالحصار أنتج فى النهاية نوعا من الإحساس بعدم جدوى القاعدة، وانتهى ذلك إلى خلق نوع من التعاطف مع الحقوق المشروعة للسيادة الوطنية.

وقد حرص «جمال عبدالناصر» على أن تبقى خيوط عمليات المقاومة فى يده شخصيا، فقد كان من رأيه دائما أن كل صاحب هدف لا يحق له أن ينسى هدفه، وربما اضطرته الظروف لأن يدور من حوله، ولكن الهدف فى كل مرحلة من الطريق يجب أن يكون واضحا، وأن تكون متابعته دءوبة. وكان ذلك درسا من دروس الاستراتيجية التى كان يعلمها فى كلية أركان الحرب وراح يطبقها الآن بنجاح. كان يريد عمليات عسكرية تخدم قضية الجلاء ولا تعقدها بتوسيع رقعة الاحتلال، ولهذا احتفظ بقيادة العمليات فى يده بحيث تتسع أو تنكمش وتعنف أو تهدأ، وفق ضرورات الموقف السياسى.

وقد وصلت الأمور مرات إلى النقطة الحرجة، ولكن المرونة فى الحركة مع متابعة الهدف كانت قادرة فى اللحظات الأخيرة على تفويت الفرص السانحة لمن يريدون اقتناصها.

وحدث فى إحدى المرات أن تمكنت مجموعة من الفدائيين المصريين من خطف طيار بريطانى هو الميجور «ريجدون» وكان معه طاقم بأكمله من المساعدين وخبراء الصيانة. وكان «ريجدون» ينتمى إلى أسرة كبيرة فى بريطانيا ولها أصدقاء ونفوذ. وأحدث اختطافه ضجة فى لندن ونشرت قصته فى الصفحات الأولى من جرائد العاصمة البريطانية، وقدمت أسئلة عنه فى مجلس العموم، وبعث «ونستون

تشرشل» رئيس الوزراء إلى وزارة الخارجية البريطانية بمجموعة من قصاصات الصحف التى نشرت قصة «ريجدون» ومعها تعليق يقول:

[«ما هذا؟ وإلى متى نسكت عن حملات الرعب الموجهة إلى جنودنا؟ إننى أقرأ كل يوم فى تقارير وزارة الحربية أن هناك عشرات من حوادث الاعتداء على قواتنا وسرقة معداتنا وتقطيع خطوط اتصالاتنا ومواصلاتنا. ولا أرى أننا نحرك ساكنا لردع هذه التصرفات. وعلى العكس أقرأ تصريحات عنيفة «لهذا الكولونيل» ناصر يتوعدنا فيها كل يوم مطمئنا إلى أننا مشلولون عن العمل، وأن الأمريكيين يحاولون استرضاءه. إن سياسة التهدئة لا تنجح عادة مع كل الدكتاتوريين وقد جربناها فى ميونيخ مع هتلر ولا يجب أن نسمح بها فى قناة السويس.

ونستون»]

وفى اليوم التالى كان القائم بالأعمال البريطانى يطلب مقابلة عاجلة مع الدكتور «محمود فوزى» ويقدم له احتجاجا شديدا. ورفض الدكتور «فوزى» قبول الاحتجاج، وقال للقائم بالأعمال البريطانى: إنه من المستحسن أن تتولى الحكومة البريطانية متابعة تصرفات ضباطها بدلا من أن تتهم السلطات المصرية بالتعرض لهم. وإنه فيما يتعلق بالطيار «ريجدون» فإن السفارة المصرية فى لندن أخطرته قبل ساعة من دخول القائم بالأعمال البريطانى إلى مكتبه أن الطيار موجود فى لندن الآن وأنه سوف يعقد مؤتمرا صحفيا عند الظهر.

وعاد القائم بالأعمال إلى سفارته ليجد أن وكالات الأنباء قد بدأت تنقل من لندن تفاصيل مؤتمر صحفى للطيار «ريجدون» يقول فيه: إنه لا يستطيع أن يتذكر ما حدث له منذ كان يستقل مع مجموعة من زملائه سيارة جيب تحملهم إلى مطار «كسفريت» ثم قبض عليهم بعض الرجال الذين لم يستطع أن يتعرف على هويتهم وأبقوه فى بيت لا يعرف مكانه ثم وجد نفسه فى قبرص يركب طائرة متجهة إلى لندن.

وأصبحت القصة مسلية أكثر مما هى خطيرة!



وحاول «جمال عبدالناصر» أن يدعم حركته فى لندن باتصالات مع حزب العمال

المعارض. كان السردار «بانيكار» (سفير الهند فى القاهرة) قد دعا «ريتشارد كروسمان» - النائب العمالى والمفكر الاشتراكى الشهير وعضو مجلس الوزراء البريطانى أكثر من مرة فى حكومات حزب العمال - إلى زيارة القاهرة وقابله «عبدالناصر» عدة مرات. ثم راح «جمال عبدالناصر» يطلب دعوة آخرين من حزب العمال، وتكررت لقاءاته برجال بارزين من أمثال «انيورين بيفان» و«جورج براون» و«باربرا كاسل» و«وودرو وايت». وكانت لقاءاته بـ«أنيورين بيفان» بالغة الأهمية فقد كان «بيفان» أقوى شخصية فى حزب العمال، وكان نائب رئيس الحزب مع «آتلى» ومع «جيتسكيل» بعده. وقد شهدت السفارة الهندية مناقشات عاصفة بين «جمال عبدالناصر» و«بيفان»، فقد كان «بيفان» من نوع الاشتراكيين الأوروبيين الذين يتصورون أن إسرائيل هى المركز الديمقراطى والاشتراكى فى المنطقة، وكان «جمال عبدالناصر» يحاول أن يضع أمامه حقيقة الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين. وكان «بيفان» بحكم تجربته ووضعه السياسى ونفاذ فكره شخصية جريئة، وفى إحدى المرات قال «بيفان» لـ«جمال عبدالناصر»: إنه يريد أن يسأله «لماذا يسمون ما حدث فى ٢٣ يوليو فى مصر ثورة؟» ثم أضاف: «إننى أجد واجهة ثورية ولكنى لا أجد ثورة بالمعنى الحقيقى لكلمة الثورة، وبما تنطوى عليه من تغييرات اجتماعية واقتصادية؟». ومضى «جمال عبدالناصر» يشرح لـ«بيفان» تاريخ ملكية الأرض الزراعية فى مصر وأهمية الإصلاح الزراعى بما استتبعه من أهمية توزيع الملكية الزراعية. وطالت المناقشات إلى الخامسة صباحا، وعندما عاد «بيفان» إلى لندن أرسل إلى «جمال عبدالناصر» نسخة من كتابه الهام: «بدلا من الخوف»، وكان الكتاب عن التجربة الاجتماعية فى انجلترا بعد الحرب العالمية الثانية وزلزالها الكبير. كذلك بعث «بيفان» لـ «جمال عبدالناصر» مجموعة «كول» عن تطور الفكر الاشتراكى فى العالم. وكانت تلك بداية صداقة كبيرة بين الرجلين(١).

---

(١) كان «بيفان» هو الذى قاد فيما بعد مظاهرة ضد الغزو الثلاثى سنة ١٩٥٦ شارك فيها أكثر من مليون مواطن إنجليزى، وكانت خطبته فيهم فى ميدان «ترافالجار». وكانت هذه المظاهرة وما أعقبها من مظاهرات واحدة من أكبر الهزات التى أصابت الرأى العام البريطانى وأدت إلى انقسام فى بريطانيا وقت حرب السويس.

وعن طريق «بيفان» تعرف «جمال عبدالناصر» على الصحفى البريطانى الكبير «كنجزلى مارتن» رئيس تحرير جريدة «ستيتسمان» ومع أن توزيعها لم يكن واسعا فإن نفوذها كان واسعا.

[٢]

وبالقدر الذى كان تفكير «جمال عبدالناصر» فيه واضحا تجاه بريطانيا فإن تفكيره إزاء الولايات المتحدة الأمريكية كان قلقا.

كانت ملفات المفاوضات المصرية البريطانية من قبل الثورة قد أعطته صورة كافية عن الدور الأمريكى فى هذه المفاوضات، ومحاولات الحكومات المصرية المتعاقبة لاستغلاله فى الضغط على بريطانيا. ولقد جرب هذه المحاولة بنفسه ونجح فيها بأكثر مما كانت تحلم به أية حكومة سابقة فى مصر. ولقد أثبت الدور الأمريكى فعلا قدرته على الضغط على لندن. ولكن السؤال المعلق كان هو: ما الذى تريده الولايات المتحدة بالضبط؟

ولم يكن هذا السؤال لغزا فالولايات المتحدة لم تكن تخفى نواياها فى مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط كما كانت تسميها. ولكن النقطة الحيوية كانت إلى أى مدى سوف تذهب الولايات المتحدة فى هذا الصدد؟

ولقد كان مقتنعا أن هناك خلافا فى الرؤى خصوصا فى تحديد من هو العدو فى الشرق الأوسط: كان هو يرى العدو فى الاستعمار وإسرائيل، وكانت الولايات المتحدة لا ترى غير الاتحاد السوفيتى، ثم إن علاقاتها بإسرائيل كانت تثير هواجسه.

وبشكل عام فقد كان رأيه طيبا فى الولايات المتحدة فى تلك الفترة، وكان فى ذلك متأثرا بدور أمريكا فى الحرب العالمية الثانية ثم بما قرأه من الوثائق السياسية الأمريكية، وفى مقدمتها وثيقة إعلان الاستقلال والدستور الأمريكى، وقد قرأ كثيرا عن حياة «جورج واشنطن» و«إبراهام لينكولن». وقد أثر فيه ما قرأ، وعندما كان

بعض الساسة الأمريكيين ممن يلقاهم يتساءلون عن كلامه أحيانا عن الحياد. كان يستشهد دائما بفقرات من خطبة «الوداع» التى ألقاها «جورج واشنطن»، والتى نصح فيها أمريكا بأن تبتعد عن خلافات القارة الأوروبية المتصارعة، وأن تتمسك بحيادها.

ولعل السينما الأمريكية أثرت فيه بدورها. فقد كان «جمال عبدالناصر» معجبا بالمخرج الأمريكى «فرانك كابرا»، وقد شاهد بعض أفلامه أكثر من مرة، وأثر فيه بالتحديد فيلمان من إخراج «فرانك كابرا» أولهما: فيلم «يالها من حياة عجيبة» وهو يحكى قصة رجل استطاع بقوة إيمانه أن يغير مجتمعا بأسره حوله. وكان الفيلم الثانى هو «المستر ديدز الشاذ»، وهو يحكى قصة مواطن عادى استطاع أن يحصل على ثقة جيرانه فرشحوه عضوا فى الكونجرس، فذهب إلى واشنطن لأول مرة، وهناك صدمته حقائق الحياة السياسية فى العاصمة.



ومع كثرة لقاءاته بالساسة والدبلوماسيين الأمريكيين، فإنه بدأ يتوجس من خطط الولايات المتحدة فى المنطقة، ويحاول بكل سبيل أن «يوسع من مساحات الاتفاق وأن يقلل من مساحات الخلاف»، على حد تعبيره.

وقد أعجب بـ«أدلاى ستيفنسون» مرشح الرئاسة الديمقراطى أمام «أيزنهاور»، حينما زار مصر وأجرى معه مناقشات طويلة ومفيدة.

كذلك أحسن الظن بـ«جون فوستر دالاس» حين اجتمع معه فى القاهرة أكثر من مرة أثناء زيارته لها. وقد أحس أن «جون فوستر دالاس» على استعداد لأن يفهم إلحاح مصر على الفصل بين موضوع الجلاء البريطانى عن أراضيها وبين موضوع اشتراكها مع الغرب فى حلف إقليمى، لكن تمسك «دالاس» بفكرة الأحلاف ضد الاتحاد السوفيتى أصابه بنوع من القلق. وفى أول اجتماع لمجلس الوزراء بعد أن غادر «دالاس» القاهرة لخص «جمال عبدالناصر» مخاوفه أمام المجلس وهو يعرض نتائج محادثات «دالاس» بقوله: إنه «يخشى أن تكون مطالب الولايات المتحدة فى

مصر هي نفس مطالب بريطانيا، وإنما بأسلوب آخر يناسب طبيعة العصر». وأضاف ضاحكا «يظهر أننا سنفرغ من «الرايحين» لنجد أنفسنا فى مشكلة مع «الجايين»». وكان يقصد الإمبراطورية البريطانية التى تغرب شمسها والقوة الأمريكية التى يصعد نجمها.



وفى كل الأحوال فإن «جمال عبدالناصر» لم يكن متحفزا لتعجل الصدام. فلقد كن يدرك حاجته إلى استخدام أمريكا للضغط على بريطانيا فى عملية المفاوضات، ثم إنه كان حتى تلك اللحظة يعتقد أنه بالإمكان الحصول على مساعدات اقتصادية أمريكية، وربما عسكرية أيضا.

وكان مشروع السد العالى(١) قد أحيل إلى مجلس الإنتاج لدراسته، وكان مجلس الإنتاج قد بدأ يستطلع فيه رأى مجموعة من الخبراء الدوليين. وقدم له مجلس الإنتاج تقريرا بنتائج الدراسات الدولية، ظهر منها أن إمكانيات المشروع ضخمة لأنه يضيف إلى الأرض الزراعية المصرية مساحة ٢ مليون فدان جديد، فضلا عن طاقة الكهرباء التى كانت كفيلة بمضاعفة إنتاج الطاقة ا لكهربائية فى مصر أكثر من مرة. لكن المشكلة التى كانت تواجهه هى تمويل المشروع، فقد حدد التقرير الأول الذى قدمه مجلس الإنتاج تكاليف بناء السد بخمسمائة مليون جنيه نصفها بالعملة الصعبة. ولم يكن هذا المبلغ فى إمكانيات الخزانة المصرية المتاحة، وكان محتما أن تعتمد مصر فى إنشائه على مساعدات أو قروض أجنبية. وساوره الظن بأن الولايات المتحدة الأمريكية هى وحدها التى تستطيع المشاركة فى تمويل مثل هذا

---

(١) كان مشروع السد العالى فكرة نادى بها ودعا إليها خبير زراعى يونانى اسمه «دانينوس»، وقد قدم مشروعه إلى بعض وزراء الأشغال فى مصر قبل الثورة، ولم يلتفت إليه أحد. وبعد الثورة بعث «دانينوس» بمذكرة إلى مجلس الثورة عن الموضوع وأحالها «جمال عبدالناصر» إلى لجنة برئاسة قائد الجناح «جمال سالم» عضو مجلس الثورة، وكان مختصا بالإشراف على أعمال مجلس الإنتاج، ثم دعا «جمال عبدالناصر» «دانينوس» إلى لقائه. واستمع منه إلى عرض تفصيلى عن المشروع، وبعدها أعطاه مجلس الإنتاج أولوية بارزة بين للشروعات التى كانت مطروحة أمامه للدراسة فى ذلك الوقت.

المشروع الكبير. ولقد شجعه على ذلك أن «دالاس» أبدى اهتماما بمشروع السد العالى، وتحدث فى مؤتمر صحفى بعد عودته إلى واشنطن عن استعداد الولايات المتحدة لبحث تمويله.

وفى الوقت الذى أحس فيه «جمال عبدالناصر» باستعداد الأمريكيين لتقبل مشروع السد العالى، فإنه أحس بترددهم فى مسألة بيع الأسلحة إلى مصر. وعزا ذلك فى تلك المرحلة إلى الضغط البريطانى. وخطر له أن هذه المسألة سوف تحل نفسها بعد التوصل إلى اتفاق مع بريطانيا إذا انفتح الطريق إلى ذلك. ثم ما لبث أن رأى الدلائل تشير إلى أن إسرائيل هى العقبة الأكبر فى موضوع السلام. ويوما بعد يوم اتضح له أن الولايات المتحدة لن تقدم لمصر سلاحا له قيمة إلا إذا تمت تسوية الصراع العربى الإسرائيلى باتفاق من نوع ما، ولم يكن مستعدا لذلك. وذهبت بعثات مصرية إلى سويسرا وبلجيكا وإيطاليا وأسبانيا تبحث عن السلاح، ثم تبين أن سوق السلاح فى الغرب يخضع لسيطرة سياسية عليا. وقد تسمح هذه السيطرة بصفقات محدودة، ولكنها لا يمكن أن تسمح بصفقات تستطيع تحديث جيش جديد بأكمله،

وفى أغسطس ١٩٥٣ صدم «جمال عبدالناصر» صدمة كبرى بالدور الذى قامت به المخابرات الأمريكية فى إيران. وعندما اكتملت لديه صورة ما حدث فى طهران، قد بدا ولأسابيع، غير قادر أو راغب فى أية اتصالات مع الولايات المتحدة.

كانت الولايات المتحدة قد شجعت «مصدق» فى البداية ضد بريطانيا واحتكاراتها للبترول الإيرانى عن طريق شركة البترول الإيرانية - البريطانية. ثم تبين أن أمريكا تسعى إلى إرث الامتيازات البترولية البريطانية فى إيران. وتكشفت النوايا الأمريكية حين بدأ عدد من الساسة ا لأمريكيين يقولون صراحة إن بترول إ يران كان هو البترول الوحيد الذى لا تملك الشركات الأمريكية أية حصة فى امتيازاته، وأن هذا الوضع كان لابد من تعديله.

وأقدم الدكتور «مصدق» على تأميم البترول الإيرانى، وكانت الولايات المتحدة

هى التى تولت حصار عملية التأميم حتى أوصلت إيران إلى حافة خراب اقتصادى محقق. ثم كانت هى التى دبرت الانقلاب المضاد على «مصدق» فحرضت على قيام مظاهرات من بعض رجال القصر الملكى الإيرانى وأتباعه وخروجهم إلى شوارع طهران، ثم رتبت مع أحد قواد الجيش الإيرانى المتواطئين معها، وهو الجنرال «فضل الله زاهدى»، أن يزحف بفرقته على طهران بدعوى إعادة الأمن والنظام إلى العاصمة. وجرى القبض على الدكتور «محمد مصدق» الذى ألقى فى السجن، وقتل عدد كبير من وزرائه فى مكاتبهم، وكان بينهم الدكتور «حسين فاطمى» وزير خارجيته وأكبر الداعين إلى تأميم البترول.

ثم عرف «جمال عبدالناصر» أن العقل المدبر للانقلاب وبطله الحقيقى هو «كيرميت روزفلت» الذى كان يعرفه ويلقاه كثيرا فى القاهرة:

ولم يكن لـ«جمال عبدالناصر» أن يستسلم طويلا لشعوره بالصدمة و«القرف». فالعلاقات مع أمريكا بدت فى تلك الظروف أهم من أن يضحى بها تماما من أجل ما حدث فى إيران. ومع ذلك فقد بدا له أن ما حدث فى إيران هو درس لابد من استيعابه واستخلاص دلالاته.



وكما أدرك «جمال عبدالناصر» أهمية الضغط على الحكومة البريطانية - باتصالات مع حزب العمال - فإنه أدرك مع الحكومة الأمريكية أهمية الوصول إلى الرأى العام عن طريق الصحافة الأمريكية والتليفزيون الأمريكى.

وبدا وكأن «جمال عبدالناصر» يقوم بحملة مباشرة فى الولايات المتحدة نفسها، فقد تكررت مقابلاته مع عدد من الصحفيين الأمريكيين وبينهم «ساى سالزبورجر» و«جيمس رستون» و«جوزيف آلسوب» و«كنجزبرى سميث»، وقد اهتم اهتماما كبيرا بـ«والتر ليبمان» وهو أعظم صحفيى القرن العشرين. وكان «ليبمان» كاتبا له تأثير لا يضاهى على الرأى العام الأمريكى، كما كان له نفوذ مؤثر على صنع القرار الأمريكى، فقد كان صديقا مقربا من معظم الرؤساء الأمريكيين ابتداء من

«ويلسون» إلى «روزفلت» قبل الحرب إلى «ترومان» و«أيزنهاور» بعدها. وقد اهتم «جمال عبدالناصر» بأن يسمع من «والتر ليبمان» بأكثر مما يتحدث إليه، فقد كان هذا الصحفى الكبير كنزا متحركا من الأفكار والمعلومات والتجارب(١).

ولم تكن هذه الاتصالات ذات فائدة فى الوصول إلى الرأى العام الأمريكى فحسب، وإنما أثبتت فائدتها مع صناع القرار أيضا. وقد بعث «أنتونى إيدن» أثناء حضوره مؤتمر «بيرمودا» بمذكرة إلى وزارة الخارجية فى لندن يقول فيها: «إنه دعا سالزبورجر إلى تناول الغداء معه فى ناد وسط المحيط فى بيرمودا، وفوجئ بالصحفى الأمريكى الكبير معبأ بالكامل مع وجهة النظر المصرية، بعد لقاء له مع جمال عبدالناصر». وفى نهاية المذكرة قال «إيدن»: «إننا نترك أهم مواقع التأثير على الرأى العام الأمريكى للمصريين يستغلونها بنجاح، بينما نحن نعتمد على قوة التحالف الأمريكى البريطانى. وهذه مسألة لابد أن نلتفت إليها، ولابد أن نطلب إلى سفارتنا فى واشنطن أن تبذل جهدا أكبر مع هؤلاء النجوم الصحفيين المؤثرين فى أمريكا».

وكان التليفزيون الأمريكى فى بداية مرحلته الذهبية، ورأى «جمال عبدالناصر» أن يذهب للأمريكيين فى بيوتهم عبر هذه الوسيلة الجديدة، وتكررت مقابلاته فى التليفزيون مع «إدوارد مورو» وهو أكبر نجوم الشاشة الصغيرة السياسيين فى ذلك الوقت.

[٣]

كانت الخطى تقود بعضها بعضا، فالحركة التاريخية لا تقبل وجود فجوات أو ثغرات، فمثل ذلك يتعارض مع منطق الطبيعة ذاته.

---

(١) التقى «جمال عبدالناصر» بـ«ليبمان» وبناء على طلبه ثلاث مرات فى بيتى، وكانت اللقاءات أشبه ما تكون باستجوابات صحفية يجربها الزعيم المصرى الثائر مع الصحفى الأمريكى الحكيم.

إن «العزة والكرامة» قادت إلى التمسك بمطلب الجلاء والاستقلال، ولو حتى إلى حد حمل السلاح والمقاومة.

ثم إن منطق الاستقلال ذاته أدى ـ وكان لابد أن يؤدى ـ إلى ضرورات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فالاستقلال ليس شكلا وإنما هو جوهر يؤثر، ولابد له أن يؤثر على حياة جماهير الشعب.

والاستقلال والتنمية معا قادا ـ وكان لابد أن يقودا ـ إلى تحديد هوية مصر فى محيطها الذى تعيش فيه. وكانت هذه الهوية قد بدأت تأخذ شكلها الطبيعى منذ توقيع ميثاق الجامعة العربية. وفيما بعد لحق به ميثاق الضمان الجماعى العربى. وكان ميثاق للضمان الجماعى نفسه هو قاعدة الحجة المصرية القائمة على تجنب دخول الأحلاف العسكرية الدولية، والإصرار على أن الدفاع عن العالم العربى لابد له أن يقوم على أساس ميثاق الضمان الجماعى، وبالتعاون والتنسيق مع الدول العربية المشتركة فيه. وهكذا كان لابد للثورة المصرية ولـ«جمال عبدالناصر» أن يذهبا للقاء العالم العربى.

وبنظرة مدرس للاستراتيجية، فقد أدرك «جمال عبدالناصر» أهمية سوريا والعراق فى منطقة الهلال الخصيب، وأهمية شبه الجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية فى وسطها.

ولم تكن الصورة حتى على الخريطة الجغرافية والسياسية سهلة. وربما كانت الخريطة السياسية وقتها أكثر تعقيدا من الخريطة الجغرافية، فالعراق كان يرتبط بعلاقة وثيقة مع بريطانيا، والسعودية كانت مرتبطة بعلاقة خاصة مع الولايات المتحدة، ثم أن الأسرتين الحاكمتين فى البلدين كان بينهما عداء تقليدى شبه قبلى، فالهاشميون فى بغداد كانوا يعتبرون السعوديين فى الرياض أعدى أعدائهم والعكس بالعكس. وفى هذه الصورة كانت سوريا وحيدة ممزقة بسلسلة من الانقلابات العسكرية. لكن سوريا كانت قلب العالم العربى، ولعلها كانت الساحة المفتوحة أيضا للصراع بين الهاشميين فى بغداد والسعوديين فى الرياض.

فالهاشميون كانوا يحلمون بسوريا الكبرى وعاصمتها دمشق، والسعوديون كانوا مصممين على ألا يتركوا أعداءهم فى بغداد يصلون إلى عاصمة الأمويين.

ولم يكن «جمال عبدالناصر» يريد أن يدخل فى هذا الصراع بين الأسرتين، فلم يكن يرى مصر طرفا فيه، وإنما كان يرى مصر ضمن إطار عربى مفتوح وواسع.

ولكن علاقة الهاشميين الوثيقة ببريطانيا - وبتأثير داهية العراق وقتها «نورى السعيد» - جعلت «جمال عبدالناصر» يركز أولا على الطريق إلى الرياض وعلى الطريق إلى دمشق.

وعندما توفى الملك «عبدالعزيز آل سعود» فى ٩ من نوفمبر ١٩٥٣ كان «جمال عبدالناصر» هو الذى رأس بعثة العزاء المصرية فيه. فقد أراد أن يتعرف على الملك الجديد «سعود»، خصوصا وأنه كان قد تعرف من قبل على الأمير «فيصل» وزير الخارجية والذى أصبح وليا لعهد الملك الجديد.

كان «جمال عبدالناصر» يريد أن يقيس بنفسه مدى الاستعداد العربى لوضع حياة جديدة فى ميثاق الضمان الجماعى، فتلك حجته فى المفاوضات مع بريطانيا. وأهم من ذلك فقد كان ذلك أساس تفكيره من منطلق قومى فى الدفاع عن المنطقة خصوصا إزاء إسرائيل.

والتقى «جمال عبدالناصر» بالملك «سعود» وبعدد من إخوته، وجدد اللقاء بالأمير «فيصل»، وعاد من السعودية وتقديره أن الملك «سعود» رجل طيب وأن التعاون معه ممكن حتى فى ظل العلاقة الخاصة بين السعودية والولايات المتحدة الأمريكية. ثم إن الأمير «فيصل» عارف بأحوال العالم، وأنه يستطيع أن يلعب دورا مؤثرا فى سياسة السعودية. وأصبح الطريق بين القاهرة والرياض من يومها مفتوحا وكان يزداد اتساعا كل يوم.



وكانت سوريا قضية أعقد، فقد بدت الأوضاع فيها مضطربة بعد سلسلة من الانقلابات العسكرية بدأت سنة ١٩٤٩ بانقلاب اللواء «حسنى الزعيم» وتلاه فى

نفس العام انقلاب اللواء «سامى الحناوى»، ثم تلاهما انقلاب قاده اللواء «أديب الشيشيكلى». وكان «جمال عبدالناصر» قد التقى بـ«الشيشيكلى» أثناء زيارة قام بها إلى مصر. وقد طرح «الشيشيكلى» فى هذه الزيارة آراء حول التعاون بين مصر وسوريا باعتبار العلاقة التاريخية بينهما، وباعتبار أن التنسيق العسكرى بين الجيشين فيهما قضية استراتيجية حيوية. ولم تصل هذه الآراء إلى نتيجة، فقد كان نظام «الشيشيكلى» يعانى من مشاكل داخلية، ولم تكن لشرعيته قواعد حقيقية يستند عليها، ثم ما لبث أن أطاح به بدوره انقلاب رابع قادته مجموعة من الضباط المتعاطفين مع حزب البعث. ولم يكن «جمال عبدالناصر» قد التقى بأحد من قادة حزب البعث بعد، ولكنه قرأ بعض مؤلفات زعيمه الأستاذ «ميشيل عفلق» واهتم بها، كما لفت نظره أن حزب البعث استطاع أن يجند بين صفوفه مجموعة ممتازة من الشباب العربى ظهر إسهامها الفكرى والتنظيمى فى العمل السياسى فى كثير من البلدان العربية. ولقد استغرب «جمال عبدالناصر» حقيقة أن حزب البعث لجأ إلى تنظيمه العسكرى فى الجيش لإزاحة «الشيشيكلى»، ولم يستطع أن يقرر أى سبيل يسلكه إلى دمشق طلبا لحوار معها، ولم تطل حيرته لأن حزب البعث قرر فى تلك الظروف التى تعرضت فيها المنطقة لدعوات الأحلاف العسكرية، أن يبادر هو ويتصل بالقاهرة. وهكذا التقى «جمال عبدالناصر» بالأستاذ «ميشيل عفلق» زعيم الحزب، والأستاذ «صلاح البيطار» أحد أقطابه. ثم اتسعت الاتصالات وتكررت وشاركت فيها فروع من تنظيمات الحزب فى الأردن وفى العراق.

وكان «جمال عبدالناصر» يريد أن يعرف أكثر عن حقائق الأوضاع فى سوريا، فقد كانت سوريا وقتها فى قلب الصراع على العالم العربى وفيه، فموقعها الممتد من حدود العراق إلى شاطئ البحر الأبيض، ومن الحدود التركية إلى خطوط الهدنة مع إسرائيل جنوبى لبنان، يجعل منها سياسيا وعسكريا نقطة الوسط تماما فى الساحة. وفضلا عن ذلك فقد كان الشعب السورى فى الطليعة من العمل القومى دائما.



وفى هذه الفترة اطلع «جمال عبدالناصر» على كتابات المفكر القومى الكبير «ساطع الحصرى»، وانكب على قراءتها بشغف ثم طلب مجموعة مؤلفاته كاملة. وكان «ساطع الحصرى» وقتها يتردد على القاهرة ما بين فترة وأخرى، ويحاول أن يجد وسيلة فيها تكفل سماع آرائه. وكان فى زياراته للقاهرة ينزل فى فندق صغير هو فندق «لاجنيفوان» فى شارع الأنتكخانة، وفوجئ الأستاذ «ساطع الحصرى» ذات صباح بدعوة إلى لقاء «جمال عبدالناصر».

وكانت الدعوة مفاجأة له، ومفاجأة سعيدة، فقد كان «ساطع الحصرى» يؤمن بالدور المركزى للقاهرة فى أى عمل قومى، وفى نفس الوقت فإن اليأس كان يعتريه بعض الوقت إلى إمكانية تنبه مصر إلى هويتها العربية، وإلى دورها الكبير المنتظر فى العمل القومى. وكان «ساطع الحصرى» قد علق الكثير على ما ذكره «جمال عبدالناصر» فى «فلسفة الثورة» عن الدائرة العربية، واعتقد أنها بداية تنبه. وكان رأيه أن العالم العربى بالنسبة لمصر هو أكثر من دائرة ضمن ثلاث دوائر: العربية والإسلامية والأفريقية. وذهب «ساطع الحصرى» إلى موعده الأول مع «جمال عبدالناصر» وهو يحمل له مجموعة من مؤلفاته، وأدهشه أن يعرف أن «جمال عبدالناصر» قرأها جميعا، ومع ذلك فهو سعيد بالحصول عليها بتوقيع كاتبها الكبير. وكانت المناقشات بين المفكر القومى العجوز وبين الثائر العربى المصرى طويلة وممتعة(١).



ولم يكن المشرق العربى وحده هو الذى لفت نظر «جمال عبدالناصر»، وإنما امتد بصره إلى مجال المغرب العربى. كان الموقف فى مراكش (المغرب) متفجرا، فقد انقضت السلطات الفرنسية على السلطان محمد الخامس وعزلته عن العرش، وأجلست عليه أحد المتعاونين معها وهو «بن عرفه». ولم يقبل الشعب المغربى هذا التلاعب بأقداره واتسع نطاق الغليان.

---

(١) شاءت الظروف أن أرتب وأن أحضر كل مقابلة «ساطع الحصرى» مع «جمال عبدالناصر»، وقد سجلت مذكرات عنها.

وفى تونس كان «بورقيبه» مازال لاجئا فى القاهرة، يقود ثورة ضد الفرنسيين ويحاول فى نفس الوقت أن يفتح بابا للتفاوض معهم.

وفى ذلك الوقت كانت القاهرة قد شجعت قيام جبهة، تضم كل حركات التحرر فى المغرب العربى. وكانت الجامعة العربية فى القاهرة ترعى هذه الجبهة بطلب من الحكومة المصرية، ثم اكتشفت القاهرة أن جهاز الجامعة العربية لا يستطيع أن يتجاوز حدودا معينة فى العمل، وقررت أن تدخل بنفسها مباشرة لتأييد ثورة التحرر فى المغرب. وفى حين بدا أن الوضع فى كل من تونس والمغرب واضح ومحدد، فإن الأوضاع فى الجزائر بدت غامضة، وأحيانا بدت إمكانيات العمل فيها شبه مستحيلة. فقد كان الاستعمار الفرنسى يتصرف فى الجزائر باعتبارها جزءا من فرنسا جنوبى البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن أحد على استعداد لأن يصدق ما تقول به بعض الأحزاب الجزائرية الصغيرة فى المنفى عن إمكانيات العمل التحررى فى الجزائر. ثم وصل إلى القاهرة ذات مساء شاب جزائرى لا يستطيع أن يتكلم العربية، وإنما يعبر عن نفسه باللغة الفرنسية، ويتخذ من ذلك دليلاً على جريمة الاستعمار الفرنسى فى محاولته لتغييب الهوية الجزائرية عن طريق تغييب اللغة. وكان اسم هذا الشاب «مزيانى مسعود». وطلب مقابلة «جمال عبدالناصر» واستقبله «جمال عبدالناصر» بالفعل. وفى أول لقاء قال «مزيانى مسعود» لـ«جمال عبدالناصر» أن اسمه الحقيقى هو «أحمد بن بيللا» وأن اسم «مزيانى مسعود» هو اسم مستعار اختاره لنفسه تخفيا من بطش الاستعمار الفرنسى. وراح «أحمد بن بيللا» يضع أمام «جمال عبدالناصر». تصورا مفصلا لإمكانيات تحرر الجزائر. وتبعه بتفاصيل كاملة عن تنظيم للمقاومة ينتمى إليه. ثم طلب مساعدة مصر بالسلاح وقبل «جمال عبدالناصر». وقال «بن بيللا» أنهم «سوف يكونون مستعدين لبدء العمل المسلح يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥٤». وتولت القاهرة تسليم «بن بيللا» ما طلبه من الأسلحة عن طريق ليبيا، وحين جاء يوم ٣٠ أكتوبر راح «جمال عبدالناصر» يسأل عن أخبار الجزائر، ولم تكن هناك أخبار على الإطلاق. ومضى يوم ٣١ أكتوبر ولا شىء يحدث فى الجزائر. وفى يوم أول نوفمبر بدأت وكالات

الأنباء ـ وبرغم الحظر الكامل على الأخبار الصادرة من الجزائر ـ تحمل معلومات عن حركة عصيان وتمرد ضد الوجود الفرنسي في الجزائر فاقت حدودها كل ما كان متصورا. وطلب «جمال عبدالناصر» أن تفتح كل أبواب المساعدة والإمداد للثورة الجزائرية، بما في ذلك إنشاء خطوط للاتصال والمواصلات مع مراكزها وقواعدها خارج الجزائر وداخلها.



وكانت فكرة الحياد تتعمق أكثر وأكثر في تفكير «جمال عبدالناصر» خصوصا بعد أن توطدت علاقاته بـ«جواهر لال نهرو» الذى اتخذ من القاهرة محطة دائمة له ذاهبا أو عائدا من أوروبا. فقد لعب سفراء الهند الثلاثة الذين تعاقبوا على مصر وقتها (السردار «بانيكار» والسفير «على ياور يونج» والسفير «عظيم حسين») أدوارا بالغة الأهمية في توثيق العلاقات بين مصر والهند. وقد اهتم «جمال عبدالناصر» بما كان يسمعه من «نهرو» في تعميق فكرة الحياد واهتم بآرائه عن الموقف العالمى وعن التخطيط وعن الدور الحاسم الذى يلعبه العلم والتكنولوجيا في تشكيل العصر الحديث.

وكان المارشال «جوزيب بروز تيتو» صديقا آخر في فكرة عدم الانحياز وكانت تجربته العالمية غنية، وكانت معرفته بالكتلة الشرقية عميقة، وكانت المحادثات بين الاثنين دائما تحليلا مركزا ودراسة واسعة بأبعاد الموقف الدولى وتوازناته. ومرة أخرى لعب سفير يوجوسلافيا المقتدر في القاهرة ـ وهو السفير «جيرجا» ـ دورا بارزا في توثيق العلاقة بين مصر ويوجوسلافيا.



كانت الملامح تتشكل، وكانت الخطوط ترسم، وكانت سياسة مصر الثورية تتحدد يوما بعد يوم.

الفصل الثالث

كلهم عَصَبيّون!

[١]

وبدأ القلق الإسرائيلى يتزايد إزاء ما يحدث فى مصر. ولقد أزعجتها الضغوط التى راحت مصر تمارسها ضد بريطانيا لإنهاء محادثات الجلاء على نحو يحقق مطالبها، كذلك أزعجتها التحركات المصرية فى العالم العربى وما وراءه. وقررت أن تتدخل مباشرة، وأن تبدأ فى لندن. وذهب السفير الإسرائيلى «إلياهو إيلاث» إلى وزارة الخارجية البريطانية، يحمل مذكرة حادة مؤداها أن إسرائيل صاحبة حق فى أن تعرف ما يجرى فى المفاوضات بين مصر وبريطانيا، لأن الأمر يهمها من عدة نواح:

فهناك أولا: الصراع العربى الإسرائيلى المسلح الذى توقف بالهدنة.

وهناك ثانيا: أن وجود القوات البريطانية فى قاعدة قناة السويس يشكل عازلا بين مصر وقناة السويس، تطمئن إليه القيادات السياسية والعسكرية فى إسرائيل. وتعتبره ضمانا لها.

وهناك ثالثا: مسألة قناة السويس والحظر الذى تفرضَه مصر على مرور ناقلات البترول من إيران والخليج إلى ميناء حيفا ومصافى التكرير فيها.

ومن هذا كله فإن إسرائيل لا تقبل أن يتم اتفاق من وراء ظهرها.

واقترح «سلوين لويد» وزير الدولة للشئون الخارجية أن تقول الحكومة

البريطانية لإسرائيل: «إنها سوف تراعى ظروف أمنها فى أى اتفاق تعقده مع مصر، وأنها سوف تخطرها فى الوقت المناسب بما يخصها فى أى اتفاق محتمل مع مصر».

ولم تقتنع الحكومة الإسرائيلية بهذا الرد الدبلوماسى، وعاد السفير الإسرائيلى يطلب مقابلة «سلوين لويد»، ومعه رسالة من رئيس الحكومة الإسرائيلى إلى رئيس الوزراء البريطانى.

وكتب «سلوين لويد» مذكرة إلى «تشرشل» يقول فيها:

[«رئيس الوزراء:

جاء السفير الإسرائيلى لمقابلتى وسلمنى الرسالة المرفقة، وطالب بضرورة التشاور معهم قبل استئناف المفاوضات مع مصر وأثناء أى اتصالات أو مفاوضات محتملة، وقبل توقيع أى اتفاقات معها، باعتبار أن هذه مسائل تهم إسرائيل أهمية قصوى. وقد لاحظت أن السفارة الإسرائيلية فى لندن أذاعت بيانا عن مطالبها منا فى نفس الوقت الذى تقدمت فيه بهذه المطالب. وفى رأيى أنه من الصعب الاستجابة لهذه المطالب الإسرائيلية، ومهما كان من شأن تعاطفنا معهم وإدراكنا أن نتيجة أية مفاوضات مع مصر سوف تؤثر عليهم، فإنى لا أرى بسهولة وسيلة تحقق لهم ما يطلبون. ولقد أكدت للسفير أننا سوف نحيطهم فى الوقت المناسب علما بما يجرى مثلما نفعل مع الفرنسيين والأتراك. والمشكلة أن الإسرائيليين عقدوا الموقف بإعلانهم رسميا عن مذكرتهم لنا، وهذا يفرض علينا أن نذيع نحن أيضا ردنا عليهم. وتقترح وزارة الخارجية أن يبعث لهم برد غير محدد تقول لهم فيه: إننا سوف نبقيهم على علم بما يجرى شرط أن يحتفظوا به لأنفسهم.

(إمضاء)

سلوين لويد»]



وكان لـ«تشرشل» رأى آخر، وقد سجله فى مذكرة بعث بها إلى «سلوين لويد»،

وإلى السير «ويليام سترانج» وكيل وزارة الخارجية، وفيها كتب «تشرشل» ما نصه:

[«أعتقد أن موقفنا من إسرائيل يجب أن يكون أقرب من ذلك. إن إسرائيل أقوى قوة مقاتلة فى الشرق الأوسط، وقد يجىء الوقت الذى نستعين فيه بها إذا حاولت حكومة مصر أن تهاجمنا. إننا لم نكن على حق إطلاقا فى السماح بعرقلة مرور البترول فى قناة السويس إلى حيفا. أرجوكم أن تعطونى ردا على إسرائيل أكثر حيوية مما اقترحتموه. وإذا أدى الأمر فإننى سوف أقابل السفير الإسرائيلى بنفسى. إن المرحوم المستر «بيفن» (وزير الخارجية العمالى) كان على نحو ما معاديا للسامية فى تفكيره، وقد ترك آثارا من هذا التفكير فى وزارة الخارجية، ووضعنا على الناحية الخطأ عندما هوجمت إسرائيل من كل الدول العربية.

(إمضاء)

ونستون»]

وعندما استؤنفت المفاوضات بعد ذلك مع مصر عادت الحكومة الإسرائيلية تلح على طلب معلومات تفصيلية عن سير المفاوضات، وأعطتها وزارة الخارجية البريطانية معلومات لم تعتبرها كافية، ومرة ثانية لجأ السفير الإسرائيلى إلى رئيس الوزراء البريطانى، وكتب «ونستون تشرشل» مذكرة أخرى إلى وزارة الخارجية موجهة هذه المرة إلى السير «ويليام سترانج» وكيل وزارة الخارجية، والذى كان مسئولا عن تزويد السفير الإسرائيلى بالمعلومات، وكان نص مذكرة «تشرشل» على النحو التالى:

[«السير ويليام سترانج:

إننى لا أفهم لماذا نتصرف على هذا النحو من الحذر مع إسرائيل. وأرجوك أن تدرك أنه لا يهمنى أن يعرف أحد هنا أو فى القاهرة أننى منحاز لإسرائيل ضد المعاملة السيئة التى تلقاها من المصريين. إن فكرة التضحية بإسرائيل فى سبيل إقناع

المصريين بالا يطردونا من منطقة قناة السويس بعنف - أو يطردونا برقة - لا تبدو جذابة بالنسبة لى. إن أمامنا فى الغالب مواجهة مع مصر، وإسرائيل قد تصبح عنصرا مهما فى هذه المواجهة سواء من الناحية العسكرية أو السياسية. ولا يحق لنا أن نتخلى عن ورقة بهذه الأهمية.

إن تقارير المخابرات السرية التى أتلقاها تظهر أمامى أن هناك مخاطر كبيرة أمامنا، إذا تركنا الحبل على الغارب للمصريين يستخدمون خبراء الألمان النازيين فى تدريب جيشهم، وتدريب قوات الإرهابيين الذين يقومون بالتخريب وعمليات حرب العصابات. وليس يحق لنا أن نعتمد بأكثر من اللازم على احتجاجات تقدمها سفارتنا فى القاهرة على الأعمال التى تجرى ضد البريطانيين فى مصر. ثم نتلقى منهم بعض العبارات المبهمة والوعود الغامضة. دعونا نواجه المصريين بقوة وننسق مواقفنا مع أمريكا. إننا نريد أن نتجنب سفك الدماء، ولكن هذا لن يتحقق إذا كنا على استعداد لأن نقبل من المصريين كلمات دون أفعال.

أرجوكم أن تتصرفوا على ضوء ما أقوله وروحه.

(إمضاء)

ونستون»]



وطلب رئيس الوزراء البريطانى أن تعالج المسائل المتصلة بإسرائيل وطلباتها على مستوى مجلس الوزراء. فانتقلت الاتصالات مع إسرائيل إلى وزير الدولة المساعد «أنتونى ناتنج» وهو يومئذ أبرز النجوم الشبان فى حزب المحافظين. وقام «ناتنج» باستدعاء السفير الإسرائيلى يسمع منه مباشرة. وذهب «إلياهو إيلاث» إليه بما يسمونه فى الدبلوماسية «مذكرة للتفكرة» (Aide Memoir)، وفيها حددت إسرائيل بأكبر قدر من الوضوح والصراحة تقديرها للموقف انطلاقا من «حقيقة» أن خروج القوات البريطانية من مصر يؤدى إلى انقلاب فى التوازن الاستراتيجى فى المنطقة، بما يتيحه من حرية حركة للجيش المصرى، وبما يفتحه من احتمالات نوع

جديد من التعاون والتنسيق بين مصر وبقية العالم العربى، ثم بما يضعه فى أيدى مصر من تسهيلات قاعدة القناة ومعداتها، وأولها مجموعة مطارات منطقة قناة السويس. وطالبت المذكرة الإسرائيلية بناء على هذا، ومن وجهة نظرها بأن تحصل على ضمانات محددة بعضها لابد من النص عليه فى الاتفاقية المصرية ـ البريطانية القادمة، وبعضها يتم ترتيبه بين تل أبيب ولندن مباشرة.

وفيما يخص المعاهدة المصرية البريطانية المقترحة، طلبت المذكرة الإسرائيلية:

[« ١ ـ أن يرد فى نصوص المعاهدة نص تتعهد مصر بمقتضاه بان منشآت القاعدة وتسهيلاتها، وأية مرافق فيها أو معدات لا يجوز استعمالها تحت أى ظرف من الظروف بواسطة مصر ضد أى دولة من جيرانها.

٢ ـ أن يرد فى نصوص المعاهدة نص خاص عن تعهد مصر باحترام حق إسرائيل فى استخدام قناة السويس، شأنها فى ذلك شأن غيرها من القوى البحرية. ولم تكن إسرائيل على استعداد للقبول بنص عام تتعهد فيه مصر بحرية الملاحة، وكان رأيها أن مثل هذا النص العام لن يمنع مصر ـ سواء بالتزاماتها طبقا لمعاهدة القسطنطينية عام ١٨٩٩ أو بحقيقة وجود القاعدة البريطانية على القناة مباشرة ـ من ممارسة حالة الحصار البحرى ضد إسرائيل فى قناة السويس».]

ثم انتقل «إيلاث» بعد ذلك إلى الأشياء التى يمكن ترتيبها بين إسرائيل ولندن مباشرة، وكانت تنحصر فى رغبة إسرائيل فى شراء أسلحة عسكرية بريطانية. فبريطانيا كانت هى حتى هذا الوقت أهم بائع للسلاح لإسرائيل، وفضلا عن ذلك فإنها الآن هى المسئولة مباشرة عن الخلل الاستراتيجى الذى يوشك أن يحل بالأمن الإسرائيلى. ومن «العدل» ـ من وجهة النظر الإسرائيلية ـ أنه ما دامت بريطانيا سوف تسلم القاعدة لمصر، وبكل ما فيها من معدات وتسهيلات، فإن عليها فى المقابل أن تعطى لإسرائيل سلاحا يمكنها من موازنة هذه الميزة التى ستحصل عليها مصر. ومضى «إيلاث» إلى أكثر من ذلك فقال: «إن هذه الحقائق كلها تفرض على بريطانيا التزاما معنويا بأن تقدم ما تطلبه إسرائيل بأسعار خاصة ومتهاونة، وبشروط

تسليم تتوخى السرعة والعجلة قبل أن يتحرك ميزان القوة فى المنطقة». ويبدو أن «أنتونى ناتنج» فوجئ بهذه الطلبات المحددة كلها، وكانت نصيحته «ألا تبالغ إسرائيل فى مخاوفها، وأنه على أى حال سوف يقدم مذكرة بحديثهما إلى السير «ونستون تشرشل»، وهو واثق أن إسرائيل لن تجد لها صديقا أوفى أو أخلص فى الحكومة البريطانية من رئيس وزرائها».



واطلع «تشرشل» على مذكرة «ناتنج»، ثم طلب إلى «أنتونى إيدن» وزير الخارجية أن يتولى بنفسه مقابلة السفير الإسرائيلى مرة أخرى، ويحاول طمأنة مخاوفه «لأن إسرائيل لديها بالفعل أسباب وجيهة تدعوها إلى القلق».



وفى مكتب «إيدن» حاول وزير الخارجية البريطانى تهدئة مخاوف السفير الإسرائيلى مرة أخرى، على أساس أن بريطانيا لن تترك فى قاعدة قناة السويس أية أسلحة أو معدات حساسة، يمكن أن تمثل خطرا على إسرائيل؛ لأنها هى نفسها لا تثق فى المصريين فضلا عن حرصها على أمن إسرائيل؛ ثم إن الجيش المصرى وخصوصا الطيران ليسا فى وضع يمكنهما من أى تهديد حقيقى لإسرائيل فى الوقت الحاضر. وكذلك فإن البيان الثلاثى الذى تلتزم بريطانيا وأمريكا وفرنسا بنصوصه يحدد كميات السلاح التى يحصل عليها أى بلد من بلدان الشرق الأوسط، وهذه الدول الثلاث حريصة على استقرار الأمور فى المنطقة، وهى تفرض حظرا حازما وتنسق فيما بينها كل صفقة بتدقيق شديد ولا تسمح لأحد بتجاوز.

وحاول السفير الإسرائيلى أن يقول: **إن الذى يريح كل الأطراف، ويحل كل هذه المشاكل دفعة واحدة، هو أن تصر بريطانيا حتى بعد إتمام الوصول إلى اتفاقية مع مصر على ربط توقيعها النهائى عليها بقبول مصر توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل.** واحتج «إيدن» بأن ذلك يعرقل الأمور، ثم إنه يضع قيدا على السيادة البريطانية وحريتها فى عقد الاتفاقيات مع غيرها من الدول، وأنه يتصور أن «الوصول إلى

اتفاقية بين مصر وبريطانيا هو الذى يفتح الباب لتسوية بين مصر وإسرائيل وليس العكس». ثم حاول «إيدن» أن يعطى السفير الإسرئيلى تأكيدا إضافيا فقال له: «إن الأمور سوف يجرى ترتيبها بحيث إن إتمام الجلاء عن مصر سوف يتوافق ويرتبط ارتباطا مباشرا بحل قضية الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط، أى أن الدول العربية فى هذا الوقت لابد أن تكون قد أوجدت سبيلا لتنظيم أمورها بمقتضى ميثاق الضمان الجماعى، واستقرت على الوسيلة التى تربط بينه وبين الترتيبات الغربية للدفاع عن المنطقة»، ولم يقبل السفير الإسرائيلى هذه الإضافة بسهولة، وأبدى استغرابه من «استعداد بريطانيا ببساطة للتخلى عن مواقعها فى السويس». ورد «إيدن» بأن «المصريين لا يرون إلى أبعد من موقع أقدامهم، ولا يقدرون المخاطر المتربصة بالشرق الأوسط، وكذلك فإن الأمريكيين يثيرون لنا المتاعب، وقد تمكن المصريون من تحريضهم علينا».

واندفع «إيلاث» فى شكوى ضد ما أسماه «العمى الأمريكى». ثم قال: «إن **إسرائيل لديها معلومات وثيقة عما يجرى فى مصر، وإذا كانت أمريكا تتصور أن «جمال عبدالناصر» سوف ينخرط فى سياساتها بعد حصوله على الجلاء البريطانى، فإن واشنطن سوف تستيقظ على صدمة فى مصر». ثم أبدى اعتقاده «أن مشاعر المصريين تجاه الأمريكيين لا تختلف عن مشاعرهم تجاه الإنجليز، وكل ما هنالك أنهم يحاولون «أكل السندويتش قضمة بعد قضمة».**



وحين أصبح «موشى شاريت» رئيسا لوزراء إسرائيل بدلا من «بن جوريون»- الذى هجر الرئاسة غاضبا من أحوال حزبه (الماباى)، واختار العزلة فى مستعمرة «سد بوكر» فى النقب ليعيش حياة رعاة الغنم من أنبياء إسرائيل، كما كان يقول أنصاره والمعجبون به - حاول «شاريت» أن يقوم بمبادرات مستقلة، فطلب من بعض الشخصيات العالمية التى يعرف اتصالها بـ«جمال عبدالناصر» أن تنقل إليه رغبات فى السلام. وفى كل هذه المحاولات لم يصل «شاريت» إلى نتيجة. فقد كان «جمال عبدالناصر» يستقبل هؤلاء الرسل بصفاتهم المعروفة، ثم ما أن يسمع أن لدى أحد

منهم رسالة من «شاريت» إلا ويغير الموضوع. وفى بعض المرات اضطر أن يكون أكثر حزما فقال:

«إن موضوع إسرائيل بالنسبة له مؤجل، وأنه لا يستطيع أن يقترب منه فى عزلة عن بقية الدول العربية، فكلها اشتركت فى الصراع العربى الإسرائيلى بسبب العدوان على فلسطين، وفلسطين ليست جزءا من السيادة المصرية المستقلة، أى أنها مسئولية عربية جماعية لا تملك أى دولة عربية أن تقترب منها منفردة».!

وعندما يئس «شاريت» من «جمال عبدالناصر» توجه لبريطانيا باقتراح طلب دراسته، وهو يقضى بنقل قاعدة قناة السويس إلى منطقة النقب التى تحتلها إسرائيل من جنوب فلسطين. وبعث «شاريت» برسالة إلى «تشرشل» مع أحد أصدقائه من أقطاب المحافظين وأعضاء حزب العموم، وهو المستر «مالاليو» يزين فيها اقتراحه على النحو التالى:

«إن نقل القاعدة إلى النقب سوف يحقق ميزات مؤكدة بينها:

(أ) حماية إسرائيل عسكريا واقتصاديا (باعتبار أن مصاريف القاعدة سوف تكون عملية ضخ دم فى الاقتصاد الإسرائيلى بتكاليف الإنشاءات والأجور والنقل.. إلى آخره).

(ب) انتقال القاعدة إلى النقب سوف يكون ردا على لطمة الخروج البريطانى من مصر.

(جـ) إن ذلك سوف يؤدى إلى تثبيت الموقف فى الشرق الأوسط.

(د) إنه أيضا سوف يساعد على منع أى عدوان روسى».

[٢]

ولم تكن شركة قناة السويس أقل عصبية من إسرائيل، ومع تقدم المحادثات مع مصر فإن الشركة راحت تحس كل يوم أن الزمن يتسرب من بين أصابعها.

كانت قد تابعت المحادثات التى جرت فى واشنطن حول نظام لتأمين أوضاع الشركة فى حالة جلاء القوات البريطانية عن مصر. وكانت الحكومة البريطانية والحكومة الأمريكية قد طرحتا فيما بينهما مبكرا موضوع إنشاء هيئة للمنتفعين لقناة السويس. وتكررت الإشارات إلى هذه الهيئة فى الوثائق البريطانية والأمريكية ابتداء من شهر يناير ١٩٥٣، ثم رأت الحكومتان بعد التوصل إلى صيغة مبدئية أن تعرضاها على الحكومة الفرنسية التى كانت تعتبر نفسها حامية شركة قناة السويس. وأدخلت الحكومة الفرنسية تعديلات على الصيغة البريطانية الأمريكية المقترحة، فقد كان رأيها أن مجرد تشكيل هيئة من المنتفعين لقناة السويس تضم الشركات البحرية، وشركات التأمين والبنوك المهتمة بالتجارة العابرة فى قناة السويس قد يجعل مثل هذه الهيئة فى النهاية مجرد جهة استشارية، ولذلك فإن الصيغة ينبغى تقويتها بحيث تكون لهيئة المنتفعين سلطة تعوضها عن غياب القاعدة البريطانية العسكرية فى قناة السويس.

وجرت دراسات طويلة حول تقوية الصيغة، ولكن هذه الدراسات طالت دون أن تصل إلى شىء نهائى، وبدأ صبر شركة قناة السويس ينفد. وقامت الشركة بتكليف اللورد «سيسل هانكى»(١) أحد أعضاء مجلس إدارتها البريطانيين (وكان من قبل سكرتيرا عاما للجنة الدفاع عن الإمبراطورية) بفتح اتصالات مكثفة مع الحكومة البريطانية. وبادر اللورد «هانكى» فبعث بمذكرات إلى كل من رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» ووزير الخارجية «أنتونى إيدن» وإلى اللورد «سالسبورى». وكان ملخص مذكرات «هانكى» يتركز فيما يلى:

« ١ - إن القناة سوف تصبح غير صالحة للملاحة على الإطلاق فى ظرف سنة واحدة من رحيل القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس.

٢ - إن المصريين لن يستطيعوا أن يقاوموا طويلاً - وفى حالتهم الاقتصادية السيئة الراهنة - إغراء تأميم شركة قناة السويس».

---

(١) من المفيد أن نتذكر أن الوزير المفوض فى القاهرة فى ذلك الوقت المستر «روبين هانكى» كان الابن والوريث الوحيد للورد «هانكى».

وطلب «تشرشل» إلى «إيدن» وإلى اللورد «سالسبورى» استدعاء اللورد «سيسل هانكى» لمناقشته فى مذكرته، ومعرفة ما قد يكون لديه من معلومات عن احتمالات الخطر الذى يتهدد شركة قناة السويس.



ومن الغريب أنه فى نفس هذا الوقت، كتب «روبين هانكى» الوزير المفوض فى السفارة البريطانية فى القاهرة (وابن اللورد «هانكى») تقريرا سريا إلى وزارة الخارجية البريطانية قال فيه: «إننى ألح فى ضرورة أن يتضمن اتفاقنا مع مصر نصا يسمح لنا بالعودة بقواتنا العسكرية إلى قاعدة قناة السويس، فى حالة خطر وشيك أو تهديد لسلامة الملاحة فى القناة». ثم أضاف: «إننا يجب أن نلاحظ أنه **لا يمكن الفصل بين حرية الملاحة وبين حماية القناة**. وفيما أعلم فقد كنا نعتمد على إنشاء كونسورسيوم (مجموعة دولية هى هيئة المنتفعين) يتولى مع الشركة مسئوليات تنظيم الملاحة فى القناة، وضمان حقوق شركة قناة السويس. ولكن فكرة الكونسورسيوم لا تزال معلقة فى الهواء».



ووصل اللورد «سيسل هانكى» فى ضغوطه إلى حد أنه أدلى بحديث لجريدة «الديلى إكسبريس»، أذاع فيه فحوى مذكرته إلى المسئولين البريطانيين عن المخاطر التى تحيط بشركة قناة السويس فى حالة جلاء القوات البريطانية عن القاعدة.

ورأت الشركة أن تعزز جهود اللورد «هانكى» فى لندن بجهود آخرين من أعضاء مجلس إدارتها البريطانيين، فطلبت إلى السير «فرانسيس ويلى» والسير «الكسندر كادوجان» والسير «هاريسون هيوز» أن يتفرغوا بالكامل لإدارة جهود شركة قناة السويس فى لندن فى هذه الظروف الحرجة.

وكانت أهم نتيجة توصلت لها الشركة هى المساعدة على إنشاء وتمويل مجموعة من الشخصيات البريطانية، تضم أعضاء فى مجلس العموم ومجلس اللوردات أسمت نفسها «**جماعة السويس**»، وراحت هذه الجماعة تشن حملة واسعة ضد

مصر ولصالح شركة قناة السويس، وتنوعت مجالات هذه الحملة وتراوحت من الضغط المباشر إلى النشر فى الصحف إلى إصدار البيانات، وطرح الاقتراحات على مجلسى العموم واللوردات.

وكان الاختيار قد وقع على المستر «جوليان إيمرى» ليرأس هذه المجموعة. وكان «إيمرى» سليلا لواحدة من أكبر الأسر البريطانية، وكان سياسيا بارزا بين قيادات حزب المحافظين، واشترك فى وزارة الحرب، واستقر أخيرا كزعيم للنواب المتمردين من المحافظين داخل مجلس العموم.

وكانت الطلقة الأولى لـ«جوليان إيمرى» مذكرة كتبها إلى رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» أنهاها بطلب لمقابلته وجها لوجه لكى يناقش معه تفاصيلها. وكانت بعض الفقرات فى مذكرة «إيمرى» خطيرة، وعلى سبيل المثال فقد جاء فى الصفحة الأولى منها مباشرة ما يلى:

«إن شركة قناة السويس لديها عقد امتياز يعطيها كل الحق فى القناة حتى سنة ١٩٦٨. وأنا أعلم أن هناك اقتراحات وبدائل لمواجهة ما بعد هذا التاريخ، لكننى أرى احتمالات كثيرة تشير إلى أن الحكومة المصرية قد تسبق فى إلغاء الامتياز أو حتى تأميمه، بتعويض أو بغير تعويض قبل انتهاء مدته. إن حكومة صاحبة الجلالة الملكة هى أكبر مالك للأسهم فى الشركة فلها وحدها ٤٤٪ من الأسهم. وفى اللحظة التى تنسحب فيها القوات البريطانية من منطقة القناة فهناك خشية من أن التأميم سوف يطبق على الشركة، إما عن طريق مباشر كما حدث فى عبدان (البترول الإيرانى)، وإما بطريق غير مباشر عن طريق جعل مركز الشركة مستحيلا فى مصر وبنفس الأساليب التى عرفناها من الشيوعيين الصينيين.

إن تأميم الشركة قد يعقبه كما حدث فى حالة شركة البترول الإيرانية ـ البريطانية فى عبدان انسحاب لكل الخبراء الأوروبيين خصوصا للمرشدين. إن أقل من ثلث المرشدين فى الوقت الحالى هم من المصريين، ومعنى ذلك أن القناة فى حالة تأميمها سوف تتوقف عن العمل. وهذا لن يؤدى فقط إلى إضرار بسلامة المواصلات فى

العالم، وإنما سوف يؤدى أيضا إلى عملية فوران وطنى بين كل شعوب الشرق الأوسط، وربما أيضا بين بعض شعوب الكومنولث».



ومرة أخرى راحت الشركة تحاول أن تبحث عن وسيلة فى القاهرة. وفى أحد اجتماعات مجلس إدارة الشركة فى باريس دعا المسيو «شارل رو» رئيس مجلس الإدارة اثنين من الأعضاء المصريين فى مجلس الإدارة («أحمد عبود» (باشا) و«على الشمسى» (باشا)) إلى لقائه، ودعا معهم إلى نفس الاجتماع اللورد «سيسل هانكى»، وطرح «شارل رو» للبحث موضوع ظروف الشركة فى القاهرة، وشكا من أن خطوط الاتصال بين الشركة بما فيها أعضاء مجلس إدارتها من المصريين وبين الحكومة المصرية ليست سالكة. وطبقا لمذكرة ـ وضعت بتلخيص نقط المناقشة، وأودعت ملفات الشركة فى باريس وأرسلت نسخة منها للعلم إلى مركزها بالقاهرة ـ كان إطار المناقشة كما يلى:

١ ـ تحدث «على الشمسى» (باشا)، وأبدى أن موضوع شركة قناة السويس موضوع شديد الحساسية فى مصر، وأنه يعرف أن الحكومة المصرية تدرك مدى حساسيته، وأنها ليست راغبة فى فتح موضوع الشركة فى الوقت الحالى مع أى طرف من الأطراف.

وفى نفس الوقت فإنه يشعر أن الحكومة المصرية تدرك المخاطر الدولية التى تحيط بأى اقتراب غير محسوب من جانبها بشركة قناة السويس، وهو يعتقد أن الشركة لن تواجه متاعب ذات بال مع الحكومة قبل انتهاء مدة الامتياز الرسمى سنة ١٩٦٨، وأن الموقف الذى يمكن أن ينشأ فى مثل هذا الوقت قد يكون من الأنسب تركه إلى مناسبته، وربما تكون الأوضاع الدولية فى المنطقة قد اختلفت على ما هى عليه الآن. ونصح «على الشمسى» (باشا) بأن تقوم الشركة بإظهار بادرة من حسن النوايا تجاه النظام الجديد بأن تستثمر بعض أموالها فى مشروعات التنمية فى مصر، وبأن تزيد نسبة الموظفين المصريين فيها، ولو من غير الفنيين.

٢ - تحدث «أحمد عبود» (باشا) وأبدى أن النظام فى مصر يضم عناصر متهورة، وقد تقدم على أى شىء، لكنه يتفق مع «على الشمسى» (باشا) فى أنه لا توجد مشاكل كبرى يستعصى حلها بين الشركة والحكومة حتى نهاية فترة الامتياز الرسمى، لأن الحكومة فى القاهرة تدرك أن أى مصاعب كبيرة تخلقها للشركة سوف تؤدى على الفور إلى تدخل دولى لا قبل لمصر به، ثم نصح بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد تكون هى الأقدر على مواجهة مشكلة ما بعد انتهاء عقد الامتياز الرسمى، وبما يحقق تجديده بوسيلة أخرى يمكن قبولها ويسهل تفويتها على المتعصبين والمتطرفين فى مصر.

٣ - لاحظ المسيو «شارل رو» أن الحكومة المصرية تنشئ بعض الإدارات والأجهزة التى تختص بالاستعداد لتسلم مرفق قناة السويس بعد انتهاء فترة الامتياز الرسمى سنة ١٩٦٨. وقال: إنه لا يعرف سببا مقنعا لإنشاء مثل هذه الأجهزة، فموضوع مستقبل القناة حتى بعد ١٩٦٨ لا يتقرر بتصورات محلية، وإنما هو موضوع له طابعه الدولى الذى لا يملك أحد أن ينزعه عنه.

٤ - تساءل «على الشمسى» (باشا) عن السبب الذى يمنع «شارل رو» من أن يحاول مقابلة «جمال عبدالناصر» بنفسه ويستقرئ نواياه، فقد يكون ذلك أسهل له مما هو أسهل للمصريين من أعضاء مجلس الإدارة، فهؤلاء عنده قد يكونون موضوع شك باعتبارهم «أجراء للشركة»، وأما هو (شارل رو) فإن له مكانته الدولية وهيبته.

ورد المسيو «شارل رو» بأنه حاول أكثر من مرة مقابلة «جمال عبدالناصر» لكن «جمال عبدالناصر» كان يرفض باستمرار ويحيله إلى وزير التجارة. وقال «شارل رو» بمرارة أنه كان يقابل الملك «فاروق» فى كل مرة يزور فيها مصر ويقضى معه ما يشاء من وقت، ويلقى منه كل الاهتمام والترحيب، «لكن ناصر يحيلنى إلى مقابلة بيروقراطى لا يستطيع أن يحل أو يربط».

٥ - أبدى «أحمد عبود» (باشا) أنه ربما كان من المناسب أن يبحث مجلس الإدارة فى

ضم أعضاء مصريين جدد، يكون بينهم من هو قادر على الاتصال بالنظام الثورى فى مصر. وسأل «شارل رو» «عبود» (باشا) عما إذا كان لديه اقتراح محدد؟ ورد «عبود» (باشا) بأنه نكر ما نكر وفى ذهنه اسم واحد معين يستطيع أن يقوم بهذه المهمة وهو الأستاذ «محمود أبو الفتح». ثم راح «عبود» (باشا) يذكر مؤهلات الأستاذ «محمود أبو الفتح»، وكيف أنه صاحب جريدة كبيرة فى مصر، وأنه أصبح مليونيرا بفضل تجارته فى للورق، ومع أنه كان من أنصار حزب الوفد إلا أن له شقيقا من المقربين إلى «جمال عبدالناصر» (يقصد الأستاذ «أحمد أبو الفتح»).

٦- أبدى «شارل رو» أنه الآن يتذكر أن بعض معارفه فى وزارة الخارجية الفرنسية - وفى جهات رسمية أخرى - عرضوا عليه من قبل اسم «محمود أبو الفتح» وأنه قابله فى إحدى المرات فعلا، واستمع إليه، وسأل عنه، ونصحه بعض المطلعين فى لندن بعدم الاعتماد على «محمود أبو الفتح» لأنه شخص لا يوثق به، ولا يهمه سوى زيادة ثروته. ثم أنهم قالوا له: إن شقيقه الذى كان قريبا من «عبدالناصر» لم تعد له هذه المكانة. ومع ذلك. فهو على استعداد أن يفكر من جديد إذا كان ذلك رأى «عبود» (باشا).

ولم تكن الطرق سالكة أبدا بالنسبة لشركة قناة السويس فى القاهرة. وكانت الشركة ترى الواقع وتبحث عن سبيل لتجاوزه.

[٣]

وكانت الحكومة الفرنسية أكثر الأطراف عصبية وتشاؤما من الطريقة التى تسير بها الأمور.

فقد أحست أن بريطانيا تحاول إبعادها عن تفاصيل مفاوضاتها مع مصر.

ثم إن بريطانيا والولايات المتحدة معا تتباحثان فى موضوع قناة السويس وقضية حرية الملاحة فيها من وراء ظهرها، وأنهما فى النهاية تعرضان عليها صيغا

جرى التوصل إليها فى غيابها، ثم يطلب إليها الموافقة عليها كأنما هى طرف احتياطى وليست طرفا أصليا فى معادلة الشرق الأوسط. ومع أنها لفتت أنظارهم إلى حقيقة أنها عضو موقع على البيان الثلاثى، وأنها تتحمل مسئولية تاريخية ومعنوية ضخمة فى مصير شركة قناة السويس، فضلا عن أن هذه القناة هى طريقها إلى الهند الصينية وحرب فيتنام، وأنها تعانى الأمرين من نشاط المصريين ضدها فى شمال أفريقيا، إلا أن هذا كله لم يقنع حلفاءها بحقوقها المشروعة فى أن يكون لها رأى فيما يجرى مع مصر.

وكان ضغط شركة قناة السويس على باريس شديدا، وكانت للضغط أساليبه المتنوعة فالشركة كانت نافذة على كل مواقع التأثير، ثم إن طاقاتها الاقتصادية والمالية كانت قادرة أن تصل بها إلى كل مكان - مؤسسة أو حزب أو أفراد أقوياء - فى المجتمع الفرنسى.



ولم تلبث حكومة فرنسا أن اكتشفت «أن المصائب يجمعن المصابينا» وأن الذين تضعهم الظروف على هامش القوة يستطيعون أن يصنعوا دائرتهم الخاصة، وأن يجعلوا منها إطار قوة مستقبلا نسبيا لحركتهم.

وهكذا وجدت حكومة باريس نفسها ملتصقة، ليس بشركة قناة السويس فحسب وإنما أيضا بإسرائيل. والحقيقة أن شركة قناة السويس ورجالها وأصدقاءها هم الذين قاموا بالدور النشيط فى الجمع بين تل أبيب وباريس، فبدأت الزيارات والاتصالات ومحاولة تنسيق المواقف. وكان الدافع المحرك بالطبع هو أن هؤلاء الأطراف الثلاثة الصغار لهم مصالحهم الضخمة. وإذا كان الأطراف الكبار لا يشركونهم معهم على قدم المساواة فى التفكير والتدبير، فإنهم يستطيعون الآن أن يفكروا ويدبروا لأنفسهم وتكون لهم لعبتهم المستقلة حتى تسمح لهم الظروف بأن ينضموا إلى الكبار، حين يشعر هؤلاء الكبار أن لهؤلاء الصغار دورا يؤدونه بالتنسيق معهم.



من هذا المنطق كان أول ما عرضته إسرائيل على فرنسا هو تزويدها بالسلاح، وكانت حجتها أنها بهذا السلاح سوف تعوض خلل التوازن الذى سينشأ عن جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس، وأنها سوف تستطيع أن تشد أنظار مصر عن العمل فى شمال أفريقيا ضد فرنسا؛ لأن إحساسها بتهديد قريب منها سوف يجعلها تفكر مرتين قبل أن تتورط فى استفزازات للآخرين بعيدة عن أراضيها.

كانت فرنسا ملتزمة بالبيان الثلاثى الذى يحدد حجم صفقات السلاح مع المنطقة ويفرض ضرورة التنسيق فيها قبل عرضها بين إحدى دول البيان الثلاثى وبين دولة رابعة. وقررت فرنسا أن تنسى الآخرين ما دام هؤلاء الآخرون قد نسوها.

وفى هذا المناخ طار «شيمون بيريز» سكرتير عام وزارة الدفاع الإسرائيلية يومئذ إلى باريس لكى يتفاوض على صفقة سلاح بين إسرئيل وفرنسا. واشترطت فرنسا أن تكون الصفقة سرية حتى لا يعرف أحد سواء من العرب أو غير العرب فى لندن وواشنطن بأمر هذه الصفقة.

وكان وزير الدفاع الفرنسى وقتئذ هو الجنرال «كاترو» الذى كان من قبل مقيما فرنسيا عاما فى سوريا ولبنان.

وقام الجنرال «كاترو» باستقبال «بيريز» والترحيب به بنفسه، وكان الترحيب حارا. ذكر أنه لا يستطيع أن ينسى دور الفيلق اليهودى فى دخول الحلفاء وبينهم فرنسا الحرة إلى سوريا ولبنان سنة ١٩٤١، ثم قال لـ«بيريز» «لقد حاربنا جنبا إلى جنب فى الماضى، والآن فنحن نواجه نفس الأعداء». وفى أغسطس سنة ١٩٥٤ وقع «كاترو» و«بيريز» صفقة سرية، تتضمن إمداد إسرائيل بسربين من المقاتلات من طراز «أوراجون»، وكذلك شبكة رادار وبعض المعدات الأخرى. ثم عاد بعد أقل من شهر لأن الحكومة الفرنسية رتبت له مفاوضات مع شركة «داسو» لكى يشترى سربين آخرين من طائرات «الميستير ١١»، وكان «بيريز» يلح أيضا للحصول على طائرات «الميستير ٤». وفى فبراير سنة ١٩٥٥ بدأت طائرات «الأوراجون» الفرنسية تصل إلى إسرائيل.

وبدأت الحركة تشتد على الجسر مباشرة من باريس إلى تل أبيب.



وعلمت الحكومتان البريطانية والأمريكية بنبأ هذه الصفقات، ولم تقل الحكومة البريطانية شيئا، وأما الحكومة الأمريكية فقد تركت المستر «ميرفى» وكيل وزارة خارجيتها يسأل «أبا إيبان» السفير الإسرائيلى بطريق غير مباشر: «إذا ما كانت إسرائيل تعتقد أن تكديس السلاح سوف يؤدى إلى حل مشاكلها؟» ثم أبدى «ميرفى» ملاحظة عابرة مؤداها أن الحكومة المصرية سوف تعرف بالتأكيد عن هذه الصفقات، وسوف تجعلها تلك الصفقات تزيد من إلحاحها على الأمريكيين أن يبيعوا لها السلاح.

وكان ما ألمح به «ميرفى» لـ«أبا إيبان» صحيحا، فقد تلقت القاهرة بالفعل بعض المعلومات عن الصفقات السرية بين إسرائيل وفرنسا، ثم راحت تستخدم هذه المعلومات حجة جديدة للإلحاح على طلب السلاح الأمريكى.

الفصل الرابع

دوىّ الرّصـــــاص

[١]

ولم يكن كل شىء على ما يرام فى القاهرة. ففى ربيع وصيف سنة ١٩٥٤ - وهى الفترة الحرجة فى مفاوضات الجلاء مع إنجلترا، والفترة الحائرة فى العلاقات مع أمريكا، والفترة القلقة فى نوايا فرنسا وإسرائيل وشركة قناة السويس ضد مصر - كانت مصر مستغرقة بجزء من اهتمامها فى مشاكل داخلية هددتها فى بعض الأوقات بما يشبه الانقسام أو الحرب الأهلية.

فقد وقع الخلاف بين اللواء «محمد نجيب» و«جمال عبدالناصر» واستحكم. وأقصى «محمد نجيب» عن السلطة، ثم أعيد إليها، ثم بدأ دوره يتقلص تدريجيا فى ظروف مفعمة بالتوتر(١). وعرض «جمال عبدالناصر» رئاسة الجمهورية على الأستاذ «أحمد لطفى السيد» (باشا) (مؤسس الجامعة المصرية وأستاذ الجيل كما كان يطلق عليه بعد ترجمته الهامة لفكر أرسطو)، ولكن «لطفى السيد» قال لـ«جمال عبدالناصر» أنه يعرف الأهمية التاريخية والوطنية للدور الذى قامت به ثورة ٢٣ يوليو، وهو يؤمن بأنه لا أحد يستطيع أن يتحمل مسئوليات استمرار أى عمل غير الذين بدأوه، وأن مصر فى حاجة إلى دم جديد، وأن شبابها لا يجب أن يتردد أو يقبل قيام ازدواجية بين شكل السلطة وحقيقتها». ولأول مرة سمع

---

(١) لأن هذا الكتاب هو أصلا عن ملفات السويس، وما يتصل بها فإن القصة هنا تحتفظ بخطها الأساسى. ولا تتفرع منه لتدخل فى روايات عن قصة «نجيب» و«عبدالناصر».

«جمال عبدالناصر» من يقول له: «إنه هو الذى يتحتم عليه أن يتقدم لرئاسة الجمهورية».

وفى نفس الوقت فقد انفجر صدام بين «جمال عبدالناصر» وبين جماعة الإخوان المسلمين، وبرغم العلاقات القديمة، ومحاولات تدعيمها بأسباب للتعاون جديدة، فإن الصدام استفحل إلى درجة أحس معها كل واحد من الطرفين أن الطرف الآخر يتربص به.

ولقد كان هم «جمال عبدالناصر» أن يبقى مجرى الصراع المصرى الأساسى ضد الاستعمار والقوى المتحالفة معه، بعيدا عن كل هذه الأسباب من التوتر واحتمالات الصدام الداخلى. وفى كثير من الأحيان كان الفصل بين الموضوعين صعبا وشبه مستحيل، ومع ذلك فإن «جمال عبدالناصر» استطاع بجهد جهيد أن يتجنب تأثر الصراع الوطنى بالنزاعات الداخلية، رغم محاولات عدد من القوى المحلية والدولية أن يستغل تعقيدات الموقف الداخلى. والدليل أن بريطانيا لم تجد مفرا من توقيع إطار اتفاقية مع مصر تحدد المسائل التى تم الاتفاق عليها، وأهمها الجلاء عن مصر على أن توقع مصر عقود خدمة مع بعض الشركات البريطانية، تتضمن استخدام بضع مئات من الخبراء المدنيين لست سنوات يقومون خلالها تحت قيادة وإشراف مصريين بصيانة معدات ومنشآت قاعدة قناة السويس، بحيث تكون مستعدة إذا حدث هجوم فى الشرق الأوسط من خارجه على البلاد العربية، أو تركيا. ولم يكن «جمال عبدالناصر» سعيدا بحشر تركيا مع الدول العربية لكنه لم يجدها تضحية كبيرة تستدعى المخاطرة بكل ما أمكن التوصل إليه، هذا إلى جانب يقينه أن الهجوم على المنطقة من خارجها ليس واردا فى الحساب، وإذا حدث فسوف تكون الحرب نووية، وهو ما أصبح مستحيلا. وقد وقع «جمال عبدالناصر» الاتفاقية ووقعها معه «أنتونى هيد» وزير الحربية البريطانى الذى طار إلى القاهرة للتوقيع يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤.

وبدأ تنفيذ الجلاء على أن يتم فى مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهرا، وعينت مصر قائدا عاما لقاعدة قناة السويس هو اللواء «على على عامر».

وكان «تشرشل» فى لندن يشعر بأن اندفاع الحوادث قد سبقه، ولم يجد ما يقوله سوى أن الأسلحة النووية غيرت من أهمية القواعد العسكرية، وبالتالى فإن قاعدة قناة السويس لم تعد لها قيمتها السابقة. ولم تكن الأسلحة النووية قد اخترعت أمس، وإنما كان العالم قد عاش فى ظلها طوال السنوات العشر السابقة !!

[٢]

كان «تشرشل» على استعداد أن يفلسف الأحداث، ولكن إسرائيل لم تكن على استعداد لمجاراته فى ذلك الوقت، فقد كانت كل النذر من مصر موحشة. ولقد كانت مخاوف إسرائيل من احتمالات تطور فى العلاقات بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية - بعد التوصل إلى إطار الجلاء - هى الهاجس المسيطر على تفكير القيادة الإسرائيلية، وخصوصا مؤسسة القوة الحقيقية فيها، والتى كان أركانها الكبار مع «ديفيد بن جوريون» هم: «موشى ديان» رئيس الأركان و«شيمون بيريز» سكرتير عام وزارة الدفاع. كان هؤلاء هم القوة الحقيقية فى المؤسسة الإسرائيلية، سواء كان زعيمهم «بن جوريون» فى الحكم أو خارجه.

وفى هذا الوقت أعدت المخابرات الإسرائيلية (الموساد) خطة لإساءة العلاقات بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، وكان الهدف هو ضرب أى احتمال لتطوير هذه العلاقات. وعرضت الخطة على «ديفيد بن جوريون» فأقرها وطلب وضعها فى شكلها التنفيذى الأخير. وقبل أن توضع الخطة للتنفيذ الفعلى كان «بن جوريون» قد ترك الوزارة ورحل إلى مستعمرة «سد بوكر». ولم يتورع أعوان «بن جوريون» وبموافقته عن تزوير إمضاء «بنحاس لافون» وزير الدفاع الجديد فى وزارة «موشى شاريت» على الأوامر التنفيذية للعملية، رغم أنه لا وزير الدفاع الجديد ولا رئيس وزرائه كانا يعرفان شيئا عنها.



وفجأة انفجرت قنبلة حارقة أمام مكتب الاستعلامات الأمريكى فى القاهرة، ثم

لحقتها قنبلة ثانية انفجرت أمام مكتب الاستعلامات الأمريكى فى الإسكندرية. واحتجت الولايات المتحدة على الحكومة المصرية بسبب هذه الأضرار التى لحقت بمنشآتها فى مصر بسبب مناخ التهييج والإثارة.

والغريب أن المصادفات وحدها هى التى سارعت بكشف المخطط الإسرائيلى. ففى الساعة السادسة والنصف من مساء يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٤ اشتعلت النار فى ملابس «شاب ذى ملامح أجنبية» أمام مبنى سينما «ريو» فى الإسكندرية، وراح الشاب يجرى مستغيثا وأحاط به الجمهور ثم استدعى البوليس، وإذا الأمر يتكشف عن أن هذا الشاب كان يحمل فى جيبه عبوة حارقة سالت بعض محتوياتها فى الجيب فاشتعلت فيه النار.

وبدأ التحقيق معه فإذا اسمه «فيليب ناتاثون»، وإذا هو عضو فى شبكة من اليهود، بعضهم من مصر وبعضهم من إسرائيل، كلفوا بنسف عدد من المنشآت الأمريكية فى مصر. واعترف «فيليب ناتاثون» على شركاء له بينهم «فيكتور لافى» و«روبير داسا». ثم ظهر باستمرار التحقيق أن الشبكة الإسرائيلية أوسع من هذا بكثير وأخطر، فقد ظهر أن أفرادها دربوا فى إسرائيل على عمليات التخريب، ثم أرسلوا إلى نقطة تجمع فى باريس أصبحت مركز اتصالهم، ثم عين لهم ضابط فى المخابرات الإسرائيلية جاء إلى مصر بجواز سفر مستعار، وتحت اسم مستعار ليقود عملياتهم بنفسه. وربما كان أسوأ ما فى الموضوع أن الجالية اليهودية فى مصر والتى ظلت لسنوات طويلة ـ تحت الرئاسة الروحية للحاخام «حاييم ناحوم» (أفندى) ـ بعيدة عن كل نشاط صهيونى ـ استسلمت أخيرا وسمحت للمخابرات الإسرائيلية باختراقها، وتركت عددا من أفرادها يعملون ضد الوطن الذى عاش اليهود فيه قرونا طويلة آمنين سالمين بغير تمييز ضدهم أو تعصب. بل وتبين أن المستشفى اليهودى فى القاهرة أصبح من أهم مراكز العمل السرى للمخابرات الإسرائيلية فى مصر بمساعدة كبير أطبائه وهو الدكتور «موسى ليتو». واعترف الدكتور «ليتو» أنه عضو فى منظمة صهيونية تعمل فى خدمة إسرائيل ومكلفة بالتجسس على مصر وإحداث الاضطرابات فيها».

واعترف الدكتور «ليتو» أيضا «أنه قضى فى إسرائيل ستة شهور دربوه فيها على أعمال اللاسلكى والشفرة». ومضت التحقيقات تكشف كل يوم عن حقائق جديدة حتى ظهر أن القيادة الفعلية لشبكة التجسس الإسرائيلية فى يد اثنين من أخطر العملاء: شابة فى الثلاثين من عمرها اسمها «مارسيل نينيو»، وكانت تعمل فى القاهرة تحت غطاء أنها مديرة أحد مكاتب الاستيراد والتصدير، والقائد الآخر للشبكة ضابط عامل فى الجيش الإسرائيلى وفى مخابراته العسكرية، دخل إلى مصر بجواز سفر أمريكى، وكان غطاؤه الظاهرى أنه خبير مهندس فى شركة «فورد» لتجميع السيارات.

وضبطت أجهزة إرسال واستقبال كما ضبطت كميات من المتفجرات ومواد كيميائية حارقة، وجداول شفرة لم تترك لأحد مجالا للشك فى حجم الشبكة، ولا فى طبيعة نشاطها، ولا فى مدى الأهمية التى تعلقها إسرائيل على نشاطها فى مصر.

وقد أظهرت بعض الأوراق المكتوبة لديهم أن هدفهم التالى فى مصر كان إرهاب الخبراء الألمان الذين يعملون فى مصر، وفى مقدمتهم الجنرال «فون ريختر» رئيس مجموعة الخبراء الألمان الملحقين بإدارة الأبحاث فى الجيش المصرى.

ووضعت الحكومة المصرية كافة التفاصيل أمام السفارة الأمريكية، وتحول ما اشتهر باسم «عملية لافون» إلى فضيحة فى العالم كله. ووجدت إسرائيل نفسها فى وضع حرج، ومع ذلك فإنها لم تلبث أن شنت حملة واسعة ضد الأحكام التى صدرت بالإعدام ضد جواسيسها فى مصر، رغم أنهم ضبطوا متلبسين بالجرم وفى أيديهم أدلته ووثائقه(١).

والغريب أن هذه الحملة وصلت إلى مداها فى الولايات المتحدة ذاتها، وإلى درجة

---

(١) التفاصيل الكاملة لعمليات شبكة التخريب الإسرائيلية والتجسس موجودة فى ثلاثة تقارير صادرة عن إدارة المباحث العامة - تروى التفاصيل والوقائع خطوة خطوة - وهى منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت أرقام (١٠٥، ١٠٦، ١٠٧).

أن الرئيس الأمريكى «دوايت أيزنهاور» كتب بنفسه خطابا إلى «جمال عبدالناصر» يرجوه تخفيف الأحكام عن «هؤلاء الشبان» - رغم جرمهم - لأسباب إنسانية!

واعتذر «جمال عبدالناصر» عن قبول شفاعة «دوايت أيزنهاور».

[٣]

وبعد أسابيع قليلة شهدت مصر هزة جديدة، فقد أقدم شاب ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين اسمه «محمود عبداللطيف» على إطلاق النار على «جمال عبدالناصر»، بينما هو يخطب بالمنشية بالإسكندرية يوم ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٥٤. وأطلق الشاب ست رصاصات من مسدسه على «جمال عبدالناصر» وهو يخطب على المنصة فى شرح تفاصيل اتفاقية الجلاء. ونجا «جمال عبدالناصر» بشبه معجزة، فإن الرصاصات الست أصابت بعض من كانوا حوله، ولكن أيا منها لم تصل إليه. وكانت تلك اللحظة مثيرة فى حياة «جمال عبدالناصر»، فرغم الهرج والمرج الذى ساد فى السرادق لحظة إطلاق الرصاص، راح «جمال عبدالناصر» يدعو المواطنين ويهيب بهم أن يثبتوا فى مواقعهم، وأن يتأكدوا من أنه إذا قتل «جمال عبدالناصر» فإن كل واحد منهم هو «جمال عبدالناصر». وكان المشهد صورة للشجاعة الإنسانية. وكان تأثيره على جماهير الشعب المصرى قويا وعميقا(١).

كانت جماعة الإخوان المسلمين فى ذلك الوقت تتعرض لمحنة داخلية، فقد مزقتها الانقسامات بين قدامى المؤسسين الذين عملوا مع الأستاذ «حسن البنا» منذ أيام إنشاء الجماعة الأولى، وبين القيادات الجديدة التى جاءت مع تحمل الأستاذ «حسن الهضيبى» لمسئولية المرشد العام للإخوان.

وإلى جانب هذا الانقسام بين القديم والوافد، فقد كان هناك انقسام آخر بين تنظيم الجماعة العلنى، وبين النظام السرى الذى أنشأه الأستاذ «حسن البنا» لكى

---

(١) من سوء الحظ أنه جاء بعد ذلك فى مصر من شككوا فى هذا المشهد، وراحوا بأثر رجعى يصورونه على أنه مسرحية رتبها «جمال عبدالناصر» ليضرب عصفورين بحجر: يحصل لنفسه على شعبية بين الناس، ويتخذ لنفسه ذريعة لضرب جماعة الإخوان المسلمين.

يكون طليعة العمل المسلح للإخوان. وكان هذا النظام السرى قد خرج عن طوع الأستاذ «البنا» نفسه فى حياته إلى درجة جعلت المرشد الأول للإخوان المسلمين يتبرأ منه علنا فى بيان نشره فى الصحف فى أوائل سنة ١٩٤٩، تحت عنوان **«ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين»**.

وتكشف دروس التاريخ أن مثل هذا النوع من التنظيمات السياسية المسلحة يكتسب لنفسه فى أجواء السرية والعزلة حركة ذاتية ورؤية مستقلة، تصل إلى درجة الانفصال عن القيادة السياسية التى يفترض أنها توجهه. ولم يكن التنظيم السرى للإخوان المسلمين استثناء من هذه الحالة التاريخية.

وبعد اغتيال الأستاذ «البنا» وتعرض جماعة الإخوان المسلمين للاضطهاد عدة سنوات، فقد أعيد تنظيم الجماعة سنة ١٩٥١ واختير الأستاذ «الهضيبى» وهو مستشار سابق فى القضاء مرشدا عاما جديدا. ولكن المشكلة التى استعصت على «حسن البنا» نفسه لم تلبث أن فرضت نفسها على خلفه بطريقة أفدح وأكثر مأساوية.



وكان الإخوان، بكل انقساماتهم الداخلية، قد تعاونوا مع الثورة فى بداية أيامها ثم ما لبث التعاون أن تعثر، فقد ظنت الثورة من ناحية أن قيادة الإخوان تحاول أن تفرض عليها نوعا من الوصاية، كما ظنت قيادة الإخوان فى نفس الوقت أن قيادة الثورة تحاول استغلال الخلافات الداخلية فى الحركة. وراح الأستاذ «الهضيبى» يشكو من أن أحدا لا يستشيره فيما يجرى فى مصر. وزادت الشكوك أكثر حينما شارك بعض أعضاء مكتب الإرشاد (الشيخ «أحمد الباقورى» بالذات) فى الوزارة التى ألفها اللواء «محمد نجيب».

ومن ناحية أخرى فقد بدأ «جمال عبدالناصر» يتلقى التقارير عن الاجتماعات التى عقدها الأستاذ «الهضيبى» فى بيته مع المستر «تريفور إيفانز» المستشار الشرقى للسفارة ا البريطانية(١). وجرت محاولات للمصالحة والمكاشفة لم تصل

(١) سبقت الإشارة إلى ذلك والاستشهاد بتقارير «تريفور إيفانز» عن تلك الاتصالات.

إلى تصفية حقيقية للقلوب، ثم بدت الظواهر تشير إلى أن قيادة الإخوان تهاجم اتفاقية الجلاء كما بدأت معلومات تتسرب عن إحياء لنشاط التنظيم السرى للإخوان.



وحين انطلقت الرصاصات الست على «جمال عبدالناصر» فى ميدان المنشية بالإسكندرية، ثم انكشفت شخصية الفاعل، فقد أصبح الصدام بين الثورة وبين الإخوان المسلمين محققا.

ولعدة أيام فإن الأستاذ «حسن الهضيبى» كان مختفيا عن الأنظار، بينما كان بعض أفراد مكتب الإرشاد خارج مصر يشنون حملة صاخبة ضد «جمال عبدالناصر».

ثم ظهر الأستاذ «الهضيبى» فى الإسكندرية مستقلا القطار إلى القاهرة، ومن بيته فى الروضة بعث إلى «جمال عبدالناصر» بالخطاب التالى مكتوبا بخط يده:

[«السيد جمال عبدالناصر

رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله

أحمد الله إليكم، الله تعالى (كذلك فى النص) وأصلى وأسلم على رسوله الكريم.

وبعد - فقد وجدت أثناء قدومى من الإسكندرية أمس محوطا بمظاهر توحى بأن الحكومة تتوقع قيام الإخوان المسلمين بحركة، ربما كانت لأخذى عنوة. ولو أن الحكومة أعلنت رغبتها فى مجيئى لبادرت والله بالمجىء أسعى إليها من تلقاء نفسى دون أن يحرسنى حارس. على أن هذه المظاهر قد أورثتنى حسرة وجعلتنى أتمنى لو وهبت البلد حياتى فى سبيل جمع الكلمة وصفاء النفوس. فاحببت أن أبادر بالكتابة إليك أرجو أن يتسع صدرك للقائى

بضع دقائق أشير عليك فيها بما يحقق أمانيك وأماني، وأنا أعلم أنك قد تكون راغبا عن هذا اللقاء، ولذا تركت أمر تدبير الجماعة من نحو خمسة أشهر إلى غيرى فلم يصلوا معك إلى شيء، وأريد الوصول إلى شيء حتى تتجه البلد كلها اتجاها واحدا ثم لا يجدنى أحد فى مكانى الذى أنا فيه من الإخوان.

وأبادر فأقول لك: إن ما سمى اختفاء قد أدهشنى أن ينسب إلىّ تدبير جرائم، فهذا كان مفاجأة لى، وأقسم بالله العظيم وكتابه الكريم أنى ما علمت بوقوع جريمة الاعتداء عليك إلا فى الساعة تسعة من صباح اليوم التالى، ولا كان لى بها علم، وقد وقعت من نفسى موقع الصاعقة لأننى ممن يعتقدون أن الاغتيالات مما يؤخر حركة الإخوان ويؤخر الإسلام والمسلمين ويؤخر مصر، وقد كنا بحثنا هذه المسألة (الاغتيالات) فى الجماعة منذ زمن بعيد واستقر رأينا على ذلك، وأخذنا نوجه الشباب إلى هذه الحقيقة، حتى لقد مضى وجودى بينهم ثلاث سنوات لم يقع فيها شيء من العنف، ولست أجد سببا لذلك بنعمة الله، ولا اختلفنا على كثير وإنما جسم الخلاف أنه لم يسمح لى بإدلاء رأيى.

فأما المعاهدة فإنى كنت أخبركم أن الإخوان لا يوافقون على معاهدات وأعدا ؤهم فى داخل البلاد، ولكنهم يصرحون أن هذه المعاهدة قد قربت البلاد من أمانيها قربا كبيرا، ونلح فى استكمال الباقى حتى لا يطمع الإنجليز فينا، وهذا هو محصل رأيك أنت فى المسألة.

وأما مسألة الحملة التى شنها عليك الإخوان فى سوريا فإنى لا أعلم بها ولا بتفاصيلها، فإن عبدالحكيم عابدين (عضو مكتب الإرشاد) ودعنا فى المطار يوم ٣ يونيو ولم أره إلى الآن، ولم يكن بينى وبينه أى نوع من الاتصال، وحين عدت بعد عيد الأضحى وجدته ذهب لأداء فريضة الحج، ومن هناك إلى دمشق، ويجب أن نتحقق عما إذا كان قد اشترك فى هذه الحملة، وحضر اجتماعاتها، وقد بلغنى أنه رماك بأنك قابلت رجالا من إسرائيل فى أثناء سياحتك فى البحر. وهذه على وجه الخصوص إذا كان قد قالها أحد لا يقره

عليها بل يستنكره كل الاستنكار، وفوق ذلك فإنها (واقعة قول عبدالحكيم عابدين بذلك) حصلت أيام اعتكافي.

وأما هذا الاعتكاف فقد أشار عليّ به بعض الإخوان لسبب ما هو الخوف من وقوع حوادث مؤسفة على أثره، ولقد كنت أخبرت الإخوان بأن أضع استقالتي تحت تصرفهم إذا وجدوا في وجودي ما يعطل الاتفاق بينهم وبين الحكومة، وأكدت ذلك لهم بخطاب أرسلته لهم من هناك وتركت لهم التصرف في شئونهم من تلقاء أنفسهم.

هذا وقد يكون في المشافهة خير كثير - إن شاء الله - وقد يكون في نفسك أشياء تحب أن تستجليها.

ولا أذكر التحقيق الذي يجري، فإني متحمل كل ما يمس شخصي، وسأدفعه بإذن الله بما يريح نفسك إلى الحق الذي هو بغية الجميع، هذا وأسأل الله تعالى أن يوفقكم ويوفق البلاد كلها للخير والحرص على الوئام.

والسلام عليكم ورحمة الله.

المخلص

حسن الهضيبى»][1]



وكتب «محمود عبداللطيف»، الشاب الذى أطلق الرصاص على «جمال عبدالناصر» اعترافا كاملا بخط يده، قدمه إلى رئيس محكمة الشعب التى كانت تتولى محاكمته علنيا ومحاكمة النظام السرى معه - جاء فيه بالنص ما يلى:

[«بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

(١) صورة رسالة الأستاذ «حسن الهضيبى» إلى «جمال عبدالناصر» منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب برقم (١٠٨).

سيدى رئيس محكمة الشعب: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فإن الله حق يحب الحق ـ أنا محمود عبداللطيف محمد «انضميت» إلى الإخوان المسلمين من سنة ١٩٤٢، وكان اعتقادى فى هذه المدة أن هذه الجماعة تعمل لله، وأن قادة الإخوان لا يأمرون إلا بما فيه خير الإسلام والمسلمين، فكنت أسمع كل أمر فى طاعة ودون تردد أو مناقشة: لأن هذا صادر عن أناس مسلمين يعملون للإسلام ويقدرون مسئولية الله فى أى عمل يعملونه فكنت معهم على هذا الأساس، وكنت أعيب على بعض الطلبة حين يناقشون فى أى أمر، وأقول فى نفسى إن الطلبة عندهم حب الجدال فى أى شىء، وكان كل أمر يأتينى من الإخوان أرى أن فى طاعة هذا الأمر طاعة لله خالصة حتى ضمونى إلى النظام السرى فى هيئة الخلية المكونة من ثلاثة أفراد، وبعد تكوين هذه الخلية بقليل طلبوا منى أنا وسعد حجاج مراقبة منزل أنور السادات وجريدة الجمهورية مقر عمله، ومراقبة الحراسة عليه وطريقة مهاجمته لاغتياله، وبعد دراسة وافية استقر الأمر على مهاجمته فى باب دار الجريدة، وفى هذا الحين قرأت الاستخارة لأتبين حقية الأمر، هذه الاستخارة أيضا قد علمنا إياها الإمام الشهيد حسن البنا فى رسالة المأثورات، وهى الأدعية والأوراد الثابتة عن النبى ﷺ، وهى فائدتها أن الأمر إن كان خالصا لوجه الله ييسره الله، وإن كان غير ذلك يوقفه الله، وبعد قراءتى لهذه الاستخارة أتانى الأخ توفيق المكلف بهذه المهمة وقال: انتظروا حتى يأتى أمر التنفيذ، وبعد ذلك انقطع عنا مدة حتى علمت بعد ذلك أنه قبض عليه خارج القاهرة، وتسلم مكان توفيق هنداوى دوير، وقال أنا أعطيكم الأوامر فقلت خيرا إن شاء الله، وقبل الحادث بأسبوع أخبرنى أنا وسعد حجاج بأمر الإخوان باغتيال الرئيس جمال عبدالناصر، وقال لنا أى واحد منا نحن الثلاثة تتاح له الفرصة ينفذ هذا الأمر ففى هذا الحين قرأت أيضا الاستخارة، وبعدها بيوم قال هنداوى أوقف الأمر، وكان لم يعطينى سلاحا بعد، وبعدها بيومين أحضر لى السلاح وقال سير على بركة الله. وقبل الحادث بيوم قابلته وأخبرته بأن الرئيس مسافر الإسكندرية لإقامة احتفالات شعبية، وإنى

معتزم السفر فتردد قليلا ثم قال سافر على بركة الله وارتكبت الحادث، ومن نعمة الله علىّ أنى لم أذهب بدماء الرئيس جمال عبدالناصر، وأقف بين يدى الله بها، وعلمت من التحقيق فى الجلسة الثانية من هنداوى دوير أن هذا الاغتيال السياسى لم يكن من الإسلام فى شىء، وإنما هو ميراث ورثناه من قبل، وفى رأى أن هذه العبارة هى من قول الكافرين الذين قالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾، فلو كنت أعلم هذا من قبل لناقشت كل أمر ياتينى من الإخوان، وكنت أنا أول ضحية فى هذا الشان لأنى كنت آخذ كلامهم على ثقة ويقين بانه للإسلام، فاحب أن أنبه جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى هذا بان لا ياخذوا من أى أحد يثقوا به من المسلمين أمرا حتى يتبينوا حقيقة أهو لله والإسلام أم لغير ذلك، وإنى قلت هذا الكلام لا طمعا فى تخفيف العقوبة ولكنه إحقاقا للحق، والأمر بين يدى عدالة المحكمة، فهى صاحبة الشان، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل» والسلام عليكم ياسيدى الرئيس ورحمة الله وبركاته.

محمود عبداللطيف محمد»][1]



ومضى التاريخ فى حركته، لأن دوى الرصاص[2] هو مجرد جملة اعتراضية عنيفة فى سياقه، لكنه بعدها متواصل متدفق فى مجراه.

---

(١) صورة خطاب محمود عبداللطيف بخط يده إلى رئيس المحكمة منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١١٠).

(٢) لابد من القول إحقاقا للحق أن الأحكام التى صدرت فى قضية محاولة الاغتيال. كانت شديدة القسوة ولم تقتصر على الفاعلين والمحرضين مباشرة، وإنما وصلت إلى ما فوقهم بكثير. كذلك من سوء الحظ فإن أجهزة الأمن الرسمية فى الدولة كانت معبأة ضد الإخوان منذ اغتيال رئيس الوزراء النقراشى (باشا) - سنة ١٩٤٨ - والرد عليه باغتيال مرشد الإخوان حسن البنا - سنة ١٩٤٩ - وأول الفوارق بين الجريمتين أن الثانية قامت بها الدولة. وقد وصلت حركة الفعل ورد الفعل بين الأطراف إلى حد تسبب فى تجاوزات وسيئات يتحمل الجميع مسئولياتها، وهى على أية حال قضية لابد أن توضع يوما لتحقيق نزيه، يبحث المقدمات والملابسات والنتائج ويلقى ضوءا على منطقة شك وحيرة فى أعماق الضمير المصرى...

الفصل الخامس

محـاولات التطـويق

[١]

لم يكن هناك تردد لدى أحد من المتابعين للحوادث على مسرح الشرق الأوسط فى أن معركة الأحلاف سوف تبدأ فور انتهاء معركة الجلاء. وفى الحقيقة إن معركة الأحلاف لم تنتظر توقيع اتفاقية الجلاء لكى تدخل بطلائعها إلى الساحة، وظهرت بوادرها لكن الحركة كانت لا تزال عند حافة الأفق أو قرب الأطراف.

ففى ١٩ من فبراير سنة ١٩٥٤ وقعت باكستان وتركيا حلفا عسكريا مواليا للغرب بينهما. وفى اليوم التالى ٢٠ من فبراير أعلنت كل من باكستان وتركيا أنها على استعداد لفتح باب المفاوضات مع العراق حتى ينضم إلى الحلف الجديد.

وفى الأسبوع الذى تلا هذه الإعلانات، قامت كل أحزاب المعارضة العراقية بتوجيه تحذير إلى «نورى السعيد» من عواقب دخول الحلف العسكرى الموقع بين باكستان وتركيا، باعتباره حلفا لا يخدم مصالح الأمة العربية.

وفى نفس الأسبوع، ومن بعيد قدم «عبدالناصر» تأييده للمعارضة العراقية بطريق غير مباشر، وشارك فى الضغط الذى وجهته لـ«نورى السعيد» بمؤتمر صحفى عقده ووجه فيه تحذيرا إلى حكومة العراق **«بالا تنضم إلى حلف غير عربى فى الوقت الذى يملك العرب فيه ميثاق الضمان الجماعى الذى يعبر عن إرادتهم وحدهم، ويستطيع إذا وضعوا فيه قوتهم أن يصبح تعبيرا حرا وقويا عن إرادتهم».**

وهدأت الأمور قليلا، خصوصا وأن اتفاقية الجلاء لم تكن قد وقعت بعد.



ومع شهور الصيف بدأت الحوادث تتحرك من جديد، ففى ٨ من يوليو سنة ١٩٥٤ كان على «جمال عبدالناصر» أن يستقبل زائرين عربيين كبيرين فى القاهرة.

كان أولهما هو الأمير «عبدالإله» الوصى على عرش العراق وولى العهد فيه. وكان الأمير «عبدالإله» يقوم بدور نشيط فى السياسة العراقية، ولم يكن يكتفى بدور المراسم التقليدى، رغم وجود رئيس وزراء قوى فى العراق مثل، نورى السعيد».

كان الأمير «عبدالإله» يريد أن ينشئ اتصالا مباشرا مع الرئيس «جمال عبدالناصر»، قد سأله فى بداية الاجتماع عما إذا كان لديه رأى مسبق فى الأسرة المالكة فى العراق؟!. وتساءل «جمال عبدالناصر» عن مغزى مثل هذا السؤال، ورد الأمير «عبدالإله» بقوله: «الحقيقة أننا كنا فى حيرة دائمة مع الملك فاروق، فقد كان يبادرنا بعداء لم نعرف سببه، وقيل لنا مرات أنه يتهمنا بمحاولة إقامة عرش فى دمشق يحكم سوريا الكبرى، ثم قيل لنا فى مرات أخرى: إنه كان يتهم الهاشميين بمخطط لإحياء الخلافة الإسلامية على أن يكونوا هم الخلفاء. ولقد حاولنا أن نصل معه إلى تفاهم لكنه أقفل كل الأبواب أمامنا، وفتحها فقط لأعدائنا السعوديين الذين استولوا بالسيف على ملكنا فى الحجاز! وقد أبلغت الملك والسيد نورى السعيد أننى سأفتح الموضوع مع فخامتكم بصراحة لكى نعرف هل الخلافات التى كانت قائمة بيننا هى مسألة تخص الملك فاروق ورأيه فى الأمور، أو تخص السياسة المصرية بما هو أوسع؟ هذا مع العلم أن العراق وأسرته المالكة أول من يقدر دور مصر الهام فى الأسرة العربية ونعتبرها باستمرار شقيقتنا الكبير».

ورد «جمال عبدالناصر» على الأمير «عبدالإله» مقدرا له صراحته ومتجاوبا معه فيها، فقد راح يستعرض طبيعة العلاقات الأخوية بين البلدين والشعبين ودور هذه العلاقة فى التاريخ العربى، وأهمية وادى الفرات ووادى النيل على رقعة الخريطة

الجغرافية والسياسية والإنسانية فى المنطقة. مختتما أنه مؤمن بضرورة التلاقى بين القاهرة وبغداد مدركا من ناحية استراتيجية أن هذا التلاقى يعطى للعرب خطا قويا يحمى مطامحهم المشروعة. وبالتالى فهو يبدأ مع العراق صفحة جديدة لا دخل لها برواسب الماضى وعلاقات الحساسية بين الأسر المالكة. وأشعل الأمير «عبدالإله» سيجارة وراح يتنحنح بتحرج واضح حين قال له «جمال عبدالناصر»: «يا أخ عبدالإله: لست فى حاجة إلى أن أقول لك: إنى جمهورى النزعة بالطبيعة، ولست طرفا فى خلافات الأسر ولا أمرائها، ثم إننا نعتقد أن موضوع الخلافة مرحلة تاريخية استوفت أغراضها وذهبت، ومجرد الحديث عنها فى الظروف الحديثة مضيعة للوقت». ثم استكمل كلامه قائلا: «لكنى لا أستطيع أن أخفى عليك أننا مهتمون بالمملكة العربية السعودية، ونحن نريدها أن تخرج إلى دور عربى قومى صريح، والإنجليز وبعدهم الأمريكان يريدون عزلها فى شبه الجزيرة العربية، وهدفهم هو عزل البترول عن قضية فلسطين. إن هذا الجزء من هدفهم ينطبق على العراق أيضا، وقد كان من هنا أنى أعطيت تصريحات ضد الحلف الذى أقامته باكستان وتركيا فهذا الحلف يحول أنظارنا إلى جبهة غير الجبهة الحقيقية التى تعنينا، ثم إنه يعزل إمكانياتنا عن التأثير فى قضايا أمننا القومى.

«هم» لا يريدون مصر بوزنها السكانى والإنسانى والحضارى كعنصر فى معادلة الأمن العربى.

«وهم» لا يريدون العراق لنفس الأسباب وفوقها البترول.

«وهم» لا يريدون السعودية لنفس الهدف كذلك.

ومن الضرورى لنا جميعا أن نتنبه، وأن تكون لنا خطتنا فى الدفاع عن أمننا القومى ومصالحنا، ولا نكتفى بالتوجه عميانا إلى خطط الآخرين.»(١)

---

(١) مذكرة عن وقائع الجلسة أملاها الرئيس جمال عبدالناصر بعد انتهائها على مدير مكتبه، وهى مودعة فى أرشيف رئاسة الجمهورية الذى كان فى بيت عبدالناصر فى منشية البكرى ونقل أيام الرئيس السادات إلى قصر عابدين.

وكان السيد «عبدالله اليافى» رئيس وزراء لبنان الذى قابل «جمال عبدالناصر» فى نفس اليوم حائرا، وقد قال: «إن الضغوط شديدة على لبنان لكى يكون مستعدا للانضمام إلى حلف غربى للدفاع عن الشرق الأوسط، ولبنان لا يريد أن يقرر لنفسه إلا ما تختاره شقيقاته العربيات. لكن الآراء بين الشقيقات العربيات مختلفة ومتنافرة، ولبنان يجد نفسه فى حيرة، وأحيانا يجد نفسه بين المطرقة والسندان، وهو يريد أن ينسق موقفه مع مصر، فهناك علاقة تاريخية قديمة بين البلدين، ثم إن مصر على عكس غيرها من الدول العربية المجاورة -!- ليست لها مطالب فى لبنان، وليست لها جماعات تأتمر بأمرها فيه». وشكا الأستاذ «عبدالله اليافى» صراحة من تنافس بغداد ودمشق والرياض فى الساحة اللبنانية التى هى هشة بطبيعة تركيبها، الأمر الذى يجعلها عرضة باستمرار للمشاكل.

ورد «جمال عبدالناصر» بأنه يفهم دور لبنان ويقدره، وأن لبنان يجب أن يكون مفتوحا للجميع بغير أن يصبح مستباحا له، وأن خير السبل هو محاولة تجميع قوى الأمة العربية فى إطار متفق عليه، ولأهداف لا يصح أن يختلف عليها أحد.

وذهب «جمال عبدالناصر» ليؤدى فريضة الحج فى ذلك العام - شهر أغسطس سنة ١٩٥٤ - وانتهز فرصة الحج لكى يلتقى بعدد من الشخصيات الإسلامية التى قصدت الأماكن المقدسة فى هذا الموسم. وكان فى ذهنه بالتحديد أن الوقت قد حان الآن ليضع علاقته بالملك «سعود» والأمير «فيصل» على أساس أقوى وأمتن.

وكان «جمال عبدالناصر» صريحا إلى أبعد حد فى هذه الزيارة، وكانت لقاءاته مع الملك «سعود» بالذات مناسبات شاء فيها أن يفتح قلبه دون أى تحفظات، فقد تحدث عن ضرورة صيانة أموال البترول والحرص عليها، من أن تذهب إلى هاوية الإسراف وبناء القصور ومظاهر البذخ التى تسىء إلى الأسرة المالكة ولا تحسن لها. ثم تحدث عن ضرورة إعداد برنامج إصلاحى يضع أمام عينيه رفاهية الشعب فى السعودية، وقال إن مصر على استعداد لأن تضع خبرتها تحت تصرف المملكة بغير تحفظات.

ثم تطرق «جمال عبدالناصر» إلى موضوع الأحلاف وشرح سياسة مصر فى هذا الصدد.

وكان الملك قابلا للنصيحة بإلحاح بشأن الإصلاح والإسراف، وراح يكرر لـ«جمال عبدالناصر» استشهاده بالقول المأثور «صديقك من صدقك وليس من صدّقك». وفيما يتعلق بالأحلاف كان الملك أكثر من متحمس، وقال لـ«جمال عبدالناصر» إن «**الجماعة فى بغداد لن تقر لهم عين إلا إذا ساقوا المنطقة كلها قطيعا إلى مراعى الاستعمار**». وتشجع «جمال عبدالناصر» فسأله عن العلاقات مع الولايات المتحدة، وقال الملك إن «الوالد ـ رحمه الله ـ يقصد والده الملك «عبدالعزيز آل سعود» ـ كان يقول لنا دائما: إننا لم نكن نعرف شيئا عن البترول، وقد جاء الأمريكى بآلاته وعدده وحفر الأرض واستخرجه منها، وكرره، وباعه فى السوق ثم جاء إلينا بنصيبنا من ثمنه، وحمدنا الله وحمدناه شاكرين». وألمح «جمال عبدالناصر» إلى محظور أن يستغل الأمريكان قضية البترول لكى يفرضوا على السعودية سياسات لا تتناسب مع مصالحها ولا مع المصلحة العربية. ثم أضاف أنه شخصيا يريد إقامة صداقة متكافئة مع الأمريكان، وهو مؤمن بإمكانيات التعاون معهم رغم ما يثير شكوكه أحيانا من تصرفاتهم. وقال الملك «سعود»: إن «العيب ليس عيب الأمريكان، ولكنه عيب الآخرين الذين يريدون الدخول تحت عباءتهم» (وكان واضحا أن الملك يشير إلى الهاشميين).

واعتبر «جمال عبدالناصر» أن زيارته للسعودية ناجحة، فقد تحدث بكلام واضح واستمع إلى كلام معقول، وفى كل الأحوال فهو كلام قابل لأن يتطور حتى يصبح فعلا مؤثرا تقوم به السعودية فى إطار العمل العربى. وكان أكثر ما تشجع له «جمال عبدالناصر» أن الأمير «فيصل» جاءه بعد أحد الاجتماعات ليقول له: «إنه سعيد لأن جلالة الملك سمع مثل هذا الكلام المخلص من صديق مخلص».



ولم يشأ «جمال عبدالناصر» ـ واتفاقية الجلاء توشك أن تصبح أمرا واقعا ـ أن

يترك الأمريكيين فى شك من نواياه، وكان هدفه أن يدفع مبكرا أية أسباب لسوء الفهم.

وهكذا اختار يوم ٣٠ أغسطس لكى يدلى بحديث إلى الصحفى الأمريكى الشهير «شارلز فولتز» مدير تحرير مجلة «يو. إس. نيوز آند وورلد ريبورت» قال فيه بأكبر قدر من الوضوح: «إن مصر لن تنضم إلى أى نظام دفاعى خارجى لأن أى حلف من هذا النوع لن يؤدى إلا إلى تقسيم العالم العربى وتشتيت قواه وتضييع أمنه القومى الذاتى، وأن ميثاق الضمان الاجتماعى هو وحده الأداة التى يجب أن يعتمدها العرب ويعتمدوا عليها فى الدفاع عن وطنهم ضد أية مخاطر خارجية تتهدده، وعليهم أن يصبوا فى وعائه كل إمكانياتهم لكى يحققوا له الفعالية الضرورية والمطلوبة».

وفى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٤ فوجئ «جمال عبدالناصر» بخطوتين فى نفس الوقت غربى الحدود المصرية، فقد وقعت الحكومة الليبية - ورئيسها فى ذلك الوقت السيد «مصطفى بن حليم» - اتفاقا عسكريا حصلت بمقتضاه الولايات المتحدة الأمريكية على قاعدة ضخمة فى طرابلس. وفى نفس اليوم وقع السيد «مصطفى بن حليم» اتفاقية دفاع مشترك بين ليبيا وتركيا، **وكان معنى ذلك أن الخطوة الأولى فى محاولة تطويق مصر قد بدأت على حدودها الغربية.** فالولايات المتحدة قد حصلت لنفسها على قاعدة فى طرابلس قريبة من القاعدة البريطانية فى بنغازى، ثم إن تركيا - بمعاهدتها العسكرية مع ليبيا - ربطتها على نحو أو آخر بالحلف التركى الباكستانى.



وفى ١٤ من سبتمبر وصل السيد «نورى السعيد» رئيس وزراء العراق بنفسه إلى القاهرة أخيرا. واحتفى به «جمال عبدالناصر» فذهب إلى استقباله فى مطار القاهرة، واستقبله فى مكتبه فى نفس اليوم.

وفى اليوم التالى ١٥ من سبتمبر شهدت السفارة العراقية اجتماعا بين الاثنين كانت بعض تفاصيله غريبة. كان «نورى السعيد» قد دعا «جمال عبدالناصر» للغداء فى السفارة، ورجاه أن يذهب قبل الغداء بوقت كاف حتى تتاح لهما فرصة للحديث

الأخوى الذى يخرج عن قيود الحديث الرسمى. ودعا السيد «نجيب الراوى» السفير العراقى فى القاهرة رئيس وزراء مصر ورئيس وزراء العراق إلى صالون يقع على يمين البهو الرئيسى لمدخل السفارة، ثم أغلق الباب عليهما وحدهما.

وبدأ «نورى السعيد» مباشرة فقال لـ«جمال عبدالناصر»: إنه لا يستطيع أن يفهم موقفه ضد الأحلاف فهذا العصر هو نفسه عصر العمل الجماعى، والدليل على ذلك ما فعلته أوروبا للدفاع عن نفسها بإقامة حلف الأطلنطى، وما حدث فى آسيا بإنشاء حلف جنوب شرق آسيا. وقال «جمال عبدالناصر» إنه يوافق «الأخ نورى» على **«أن العصر بالفعل هو عصر العمل الجماعى، ولهذا فهو ينادى بالاعتماد على ميثاق الضمان الجماعى؛ لأنه لم يعد فى مقدور أى دولة منفردة أن تقف وحدها»**. وقال «نورى السعيد»: ولكن على من يقوم هذا الضمان الجماعى؟ ثم تساءل ضاحكا: **«على اليمن أو على ليبيا أو على لبنان؟»** وقال «جمال عبدالناصر»: **«لا. وإنما على مصر وسوريا والعراق والسعودية، وفى نفس الوقت فإن اليمن وتونس ولبنان يمكن أن يكون لها جميعا أدوار مؤثرة»**. وتساءل «نورى السعيد»: ولكن من يعطينا السلاح؟ ومن يساعدنا إذا هوجمنا؟ ثم إن الاعتماد على أنفسنا لن يفى بأغراضه إلا بعد عشرات السنين، وماذا سيحدث لنا فى هذه العشرات من السنين؟» ورد «جمال عبدالناصر» بأن «هناك سؤالا مبدئيا يجب تحديده أولا وتحديد الإجابة عنه. وهو يعرف أن نورى (باشا) له ثقافة عسكرية منذ كان ضابطا فى الجيش العثمانى، ولهذا فهو بالتالى يستطيع أن يفهم أهمية السؤال والإجابة عنه. هذا السؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا ونجيب عليه هو: **«من هو العدو المحتمل أن نواجهه وما هو مصدر أو مصادر التهديد على العرب؟»** وأضاف «جمال عبدالناصر» **«عندما نحدد الإجابة عن هذا السؤال نكون قد حددنا فى نفس الوقت المهمة التى تنتظرنا»**. ثم استطرد **«إنه فى رأيى ورأى الشعب المصرى أن الخطر علينا والتهديد المحتمل مصدره إسرائيل»**. وقاطعه «نورى السعيد» سائلا «والروس؟» ورد «جمال عبدالناصر» بأن «الروس ليسوا خطرا حالا، فهم بعيدون عنا، وليست بيننا وبينهم حدود، وإذا اقتربوا منا خطوة واحدة فمعنى ذلك حرب عالمية أكبر منا فضلا عن أننا لا نملك أسلحتها لأنها ستكون ذرية». وقال «نورى السعيد» إن «هذا الوضع قد يكون

صحيحا بالنسبة لمصر، ولكنه ليس صحيحا بالنسبة للعراق، فإننا بيننا وبين الحدود الروسية عبر جبال «راوندوز» مسافة ٣٠ كيلو متر فقط من الأراضى الإيرانية، وهذا يفرض علينا أن نتوجه إلى الخطر الروسى». وقال «جمال عبدالناصر» إن «الروس لن يقتربوا من هذه الثلاثين كيلو فى إيران إلا إذا قرروا اجتياحها، وهذا يعنى حربا عالمية، وهذا أمر يجب أن نبقيه خارج حساباتنا فى الغد المرئى على الأقل». وبدا أن «نورى السعيد» تضايق فقد قفز من مقعده فجأة وقال لجمال عبدالناصر: «أنت لا تصدقنى أنها ثلاثون كيلو فقط التى تفصل بيننا وبين الاتحاد السوفيتى، سوف أجيئك بخريطة لترى المسألة بنفسك». وحاول «جمال عبدالناصر» أن يقنعه بالعودة ثانية إلى مقعده قائلا: إنه يعرف الخريطة، ولكن «نورى» (باشا) اندفع خارجا من القاعة يطلب من السفير العراقى «خريطة»، ولم ترضه خريطة صغيرة جاء بها السفير «الراوى» من مكتبه، فراح يصيح فى وسط البهو «أين الملحق العسكرى؟ أليس فى هذه السفارة ملحق عسكرى؟ هاتوه وليجئ معه بخرائطه». وأقبل الملحق العسكرى العراقى مهرولا من مكتبه فى مبنى مجاور لمبنى السفارة وخطف منه «نورى» (باشا) الخريطة الكبيرة الملفوفة فى يده، وعاد بها إلى الصالون ونسى إغلاق الباب وراءه. وكانت الخريطة كبيرة لم تتسع لها المائدة الموضوعة بين المقاعد وإذا «نورى» (باشا) يهم واقفا ثم يركع على الأرض ويفرش الخريطة الكبيرة على البساط ويصيح على سكرتيره يطلب نظارته، ثم يروح يحبو على الخريطة باحثا عن موقع يريده، وعثر عليه أخيرا فصاح «راوندوز.. هاهى راوندوز» ثم دعا «جمال عبدالناصر» أن ينزل معه على الخريطة واستجاب «جمال عبدالناصر» **وكان منظر الرئيسين وهما يحبوان على الخريطة يبحثان ويدققان فى موقع «راوندوز» مشهدا غريبا**(١).

وعاد الرجلان أخيرا إلى مقعديهما وكان «نورى» (باشا) لا يزال يتحدث عن الخطر الشيوعى، ويتساءل هل نستطيع مواجهته إلا بحلف مع الإنجليز والأمريكان؟ وسأله «جمال عبدالناصر»: «**وأين إسرائيل فى ذلك كله؟**» وقال «نورى

---

(١) كنت واحدا ممن شاءت لهم الظروف أن يروا هذا المشهد بعينهم.

السعيد»: إن «الغرب سيعطينا سلاحا للوقوف معه ضد الروس، والسلاح الذى سنأخذه منهم سوف يكون فى أيدينا نحارب به من نشاء». وسأله «جمال عبدالناصر» **«وهل يعطيك الأمريكان والإنجليز سلاحا تحارب به إسرائيل؟»** وسكت «نورى السعيد» بعض الوقت ثم قال لـ«جمال عبدالناصر» **«إنك ترغمنى أن أقول لك خطتى قبل أوانها. ما هو رأيك فى ستين فرقة إضافية تضاف إلى قوانا فى معركة مع إسرائيل؟»** وابتسم «جمال عبدالناصر» وقال له بالتعبير المصرى المشهور: **«يدى على كتفك. أين هى هذه الفرق الستون؟»** واندفع «نورى السعيد» يقول: **«أتراك وباكستانيون. إذا دخلنا معهم فسوف يدخلون معنا»**. وسأله «جمال عبدالناصر»، **«وهل يسمح لهم الإنجليز والأمريكان؟»**، ورد «نورى» (باشا) دون أن ييأس: **«إنهم لن يطلبوا إذننا»**. وسأله «جمال عبدالناصر»: **«وكيف تضمن ذلك؟»** وقال «نورى» (باشا): **«اعتمد علىّ»** ورد «جمال عبدالناصر» بأنه **«يريد أن يعتمد على نورى (باشا) فعلا ولكنه لا يريد أن يلغى عقله»**.

وراحت المناقشات تدور بين الرجلين فى حلقة مفرغة بدا واضحا أنها لن تصل بهما إلى شىء.

[٢]

لم يخطر ببال «جمال عبدالناصر» أن الحجج التى أبداها لـ«نورى السعيد»، أثناء اجتماعهما معا فى القاهرة، سوف تكون كافية لإقناعه بخطأ سياسة الأحلاف. وقد كان يدرك أن أبعاد الموضوع أوسع وأعمق، فقد كان واثقا من أن هناك ربطا بشكل ما بين مراحل تنفيذ الجلاء عن منطقة قناة السويس وبين التقدم فى عملية إقامة حلف دفاعى عن الشرق الأوسط. ولم تترك الولايات المتحدة لأحد مجالا للشك، ففى ذلك الوقت وصل إلى القاهرة السفير الأمريكى الجديد «هنرى بايرود» وقدم أوراق اعتماده، وحاول بكل وسيلة أن ينشئ علاقة شخصية ومباشرة بـ«جمال عبدالناصر». والحقيقة أن «جمال عبدالناصر» استجاب لمحاولات «بايرود»، فقد بدا

له السفير الأمريكى الجديد شخصية جذابة ونكية، وبالفعل. وكما قدر «دالاس» عندما وقع اختياره على «بايرود». فإن شباب «بايرود» وخلفيته العسكرية والدبلوماسية كانت تمكنه من الاقتراب من القائد المصرى الشاب وطموحاته الواسعة. يضاف إلى ذلك إحساس «جمال عبدالناصر» بأن «هنرى بايرود». باعتبار منصبه السابق الذى جاء منه إلى مصر، وهو منصب مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط. على علم دقيق بمقاصد السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، ثم إنه يجعل كلمته فى العاصمة الأمريكية مقبولة ومسموعة، لكن المصالح الأكبر وتصادم هذه المصالح مع بعضها كان كفيلا بأن يثبت أن حقائق الصراع أهم من كل الأفراد.

وفى أحد اللقاءات المبكرة بين الرجلين، أثار «بايرود» تلميحا ثم تصريحا بأنه «الآن واتفاقية الجلاء تمضى فى سبيلها نحو التنفيذ مرحلة بعد مرحلة، فربما يكون الوقت قد جاء للانتقال لما هو بعدها، وهو تنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط». وكان رد «جمال عبدالناصر» باستمرار أنه «طالما هناك قوات بريطانية لا تزال موجودة على الأرض المصرية فإن تنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط يصبح سابقا لأوانه، على أساس أن الإرادة المصرية لا تتحرر بتوقيع اتفاقية، وإنما يتحقق تحررها بتمام تنفيذ هذه الاتفاقية». وكان «بايرود» ينصح بأن الأعمال التمهيدية لإقامة التنظيم الدفاعى عن المنطقة يمكن أن تبدأ، وهى بطبيعتها سوف تستغرق شهورا طويلة، وهو ما يتطلب البدء بسرعة فى الإعداد، على أن يكون التوقيع النهائى وقيام الحلف عند إتمام الجلاء. ومرة أخرى كان «جمال عبدالناصر» يوضح أنه لم يصل إلى قرار بعد، وأنه لم يبحث الموضوع لأن مجرد بحثه يقتضى أولا تحديدا لمتطلبات الأمن المصرى والأمن العربى، وهو يعتبر أن ذلك لا يمكن طرحه للتفكير الجاد قبل إتمام الجلاء. ثم إنه فى كل الأحوال كان مقتنعا فى صميمه بأن الدفاع عن المنطقة يجب أن يرتكز على نحو ما على قاعدة ميثاق الضمان الجماعى العربى وفى إطاره.



وكـان «جـمـال عـبـدالـنـاصـر» يدرك أن مـسـاعـى «نورى السـعـيـد» ـ لإقـامـة حلف عسكرى يرتبط بالغرب فى المنطقة ـ ليست بعيدة عما كان يسمعه من «بايرود» ومن السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون»، وكان واثقا أن بريطانيا أقرب إلى جهود «نورى السعيد» فى هذه المرحلة. فالحكومة البريطانية هى الأكثر تصميما من غيرها على أن يكون هناك تزامن وثيق بين الجلاء عن قاعدة قناة السويس وبين إقامة تنظيم غربى للدفاع عن الشرق الأوسط. وكان خطها واضحا فى ضرورة أن تبدأ ترتيبات إقامة الحلف فى مرحلة مبكرة من مراحل الجلاء، حتى تضمن أن تكون قواتها فى قاعدة قناة السويس لا تزال كبيرة، لم تؤثر على حجمها المراحل الأولى من الجلاء. فى الوقت الذى تكون فيه قد اطمأنت أن مخطط الدفاع عن المنطقة كما تراه هى وحلفاؤها قد أصبح بديلا جاهزا.

وربما خطر لـ«جمال عبدالناصر» أن «الآخرين» لن يدفعوا خططهم بسرعة وعجلة حتى لا تنكشف مراميها، ومن ثم فقد ظن أنه لا يزال يملك وقتا كافيا لإعادة تنظيم الأوضاع الداخلية فى مصر قبل أن تواجهه المرحلة التالية.

وبالفعل فقد أتيحت له فرصة عدة أسابيع ركز فيها على التخطيط الشامل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وأنشأ مجلسا أعلى للتخطيط، ينسق بين أعمال المجلس الأعلى للإنتاج والمجلس الأعلى للخدمات، ويربط عملهما معا، ومع الجهاز الحكومى؛ بقصد تحقيق أكبر قدر من قوة الاندفاع الداخلى. وجرت محاولات فى مجالات أخرى للتنظيم السياسى، ولكن منصب رئيس الدولة كان شاغرا، ولم يتقدم «جمال عبدالناصر» له، فقد كان اعتقاده بأنه لا يستطيع أن يتقدم لرئاسة الجمهورية إلا بعد إتمام الجلاء.



ولم تقف الحوادث ساكنة، وكانت الرياض أول من أحس بنذر العاصفة القادمة، فقد كانت الرياض تتابع أكثر من غيرها تحركات بغداد، ثم إنها كانت على صلات قوية بما يجرى فى دمشق وبيروت وعمان.

وبدأ الملك «سعود» يمطر «جمال عبدالناصر» بسيل من الخطابات. كان أولها ما يلى:

[«تحياتى وتمنياتى الطيبة -

لابد أن الأستاذ عبدالوهاب عزام أطلعكم عما دار بيننا وبين الباكستانيين بالتفصيل (عرضوا على السعودية أن تدخل معهم ومع تركيا فى تنظيم دفاعى عن الشرق الأوسط)، كذلك لابد أنكم سمعتم الخبر الذى أذاعته لندن، عن أن حكومة العراق أعلنت أمس أنها قبلت عرضا من الحكومة الأمريكية بتزويدها وإمدادها بالمساعدات العسكرية، وأن هذا جاء نتيجة لقبول العراق أن ينضم لحلف تركيا - باكستان الذى يفترض أن تنضم إليه بلاد الشرق الأوسط جميعا.. إلى آخره.

ويتضح من هذا أن العراق قد بت فى موضوع دخول الحلف بين باكستان وتركيا، وضرب بميثاق الجامعة العربية والدفاع المشترك عرض الحائط. فما هو الرأى فى هذا الموقف، وما هى التدابير التى يمكن بها الحيلولة دون تحقيق هذه الغاية سواء بالمفاهمة مع الحكومة العراقية أو بالدعاية لدى الشعب العراقى؛ لأن هذه المسألة أحدثت فجوة فى صفوف العرب والتجافى من العراق غير محمود، وربما كان وراء هذا ما هو أعظم مما يضر بمصالح العرب.

ونعتقد أن الدافع لهذا هو الضغط الأمريكى - الإنجليزى للتفاهم مع إسرائيل. وقد أصبحت المسألة الآن مهمة لا تحتمل التغافل، ولاسيما وأن البلاد العربية فى حالة تهديد، فضلا عن قضيتهم والتدابير التى اتفقنا عليها. كل هذه الأمور تحتاج إلى درس وتضامن وتقرير خطة شاملة لكل المشكلة فيما بين الدول العربية، فقد أصبحت المسألة خطيرة ومهمة، ويجب تعاضدنا وتفاهمنا، ولكنهم يعملون على تقويض ما فيه التعاون بيننا وبين الدول العربية عامة ومصر خاصة، والأمر يحتاج إلى تفاهم وثيق: فإما أن نرسل

مندوبا من قبلنا أو يرسلوا مندوبا من قبلهم أو تجتمع اللجنة السياسية لتقرير الخطة الواجب اتباعها، ومن أقرها يمشى بمقتضاها ويطمأن إليه. ومن حاد عنها عرفناه وعرفنا اتجاهاته ونحدد موقفنا منه، ولابد من الاستعجال فى نظر هذه القضية لأهميتها الكبيرة.

(إمضاء)

سعود»]

ولم تمض أيام حتى ذهب السفير السعودى فى القاهرة لمقابلة الرئيس «جمال عبدالناصر»، وقدم إليه نص تعليمات مرسلة إليه من الملك «سعود»، وكانت كما يلى:

[«قابل السيد الرئيس جمال عبدالناصر وأخبره أننا سمعنا من الإذاعات المصرية والعراقية أن «نجيب الراوى» (سفير العراق فى القاهرة)، صرح بعد مقابلته للرجال المسئولين فى الحكومة المصرية بأن تسليح العراق لم يجر إلا بعد التشاور مع الدول العربية والجامعة. وحيث إن هذا خلاف الحقيقة اللهم إلا إذا كان عند الجماعة معلومات خلاف ما عندنا فهذا أمر ثان، وإذا ما كان عندهم شىء فينبغى أن يبينوا للعالم العربى ما يفند ما صرح به سفيرهم (سفير العراق). وهذا مما يوضح للشعب العراقى والشعوب العربية حقيقتهم، وأنهم أناس يموهون الحقائق ويضللون الرأى العام العربى بأساليبهم المتنوعة. وأنا يهمنى جدا نشر مثل هذا التكذيب الذى سوف يفضح مناوراتهم التى يقومون بها بالتمويه على الناس، وإن عملهم هذا فيه كيد للعرب وفت فى عضدهم وإحداث فجوة فى صفوفهم.

إن قبول العراق بعدم استعمال السلاح ضد إسرائيل التى لا يوجد عدو غيرها للعرب، لما يدل على خروجهم عن الضمان الجماعى وخروجهم عن الضمانات التى التزموا بها كسائر الدول العربية، وربما يكون وراء هذه

الخطوة ما هو أعظم منها، وهو انضمام العراق إلى الحلف التركى الباكستانى والسير وراء المستعمر لتحقيق مصالحه(١).

(إمضاء)

سـعود»]



ولم تكن خطابات ورسائل الملك «سعود» هى وحدها علامات النذر، فإن الأسلحة التى أعلنت أمريكا أنها سوف تزود بها العراق، لحق بها على الفور بيان صدر فى واشنطن مفاده: أن الولايات المتحدة تبحث مع إسرائيل صفقة سلاح بمبلغ ٣٩ مليون دولار.

وتشير ملفات وزارة الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت أن «جون فوستر دالاس» بدأ يشك فى أن مصر سوف تقبل بسهولة منطق الأحلاف العسكرية، ومن ثم بدأ يعدل مفهومه لحلف النطاق الشمالى كما كان يسميه (Northern Tier) - كان مفهومه لهذا الحلف فى البداية أن يمتد شمال الشرق الأوسط على خط يبدأ من تركيا فإيران فباكستان - والآن بدأ يفكر فى تعميقه أكثر بإدخال العراق وسوريا ولبنان والأردن، بحيث يضمن للحزام الشمالى عمقا داخليا أبعد. وكانت تصوراته كما تشير الملفات، أن ذلك يضمن تجنيب السعودية التى لا يمكن أن تشترك فى أى عمل جماعى مع الهاشميين، وإبقاءها وحدها كمنطقة نفوذ أمريكية خاصة ومحددة، ثم إن هذا التصور يستبعد مصر وتأثيرها عن الموضوع كله حتى يستقر رأيها على ما سوف تفعله، وسوف تجد نفسها فى النهاية مرغمة على اللحاق بالآخرين وإلا وجدت نفسها معزولة. ثم إن هذا التصور يصرف العرب فى آسيا عن إسرائيل، وذلك إلى حين يمكن ترتيب إلحاق إسرائيل على نحو أو آخر بالتنظيم الدفاعى للشرق الأوسط.

---

(١) خطابات ورسائل للملك سعود إلى جمال عبدالناصر منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت أرقام (١٠٢، ١٠٣) وعليها توقيع جمال عبدالناصر بما يفيد اطلاعه عليها.

وكان «جمال عبدالناصر» يتابع هذا كله ويشعر أن الهدف منه - إلى جانب تقييد المنطقة بسياسة الأحلاف - هو تطويق مصر لتجد نفسها فى مواجهة إسرائيل منفردة.



وفى باريس كان «منديس فرانس» قد أصبح رئيسا لوزراء فرنسا، وبدأ حملة منظمة على مصر يتهمها فيها بتشجيع الثورة فى الجزائر.

وكانت شركة قناة السويس نشيطة فى تقديم المعلومات عن النشاط المصرى فى شمال أفريقيا إلى الحكومة الفرنسية الجديدة.

واجتمع مجلس إدارة شركة قناة السويس يبحث فى موقف الشركة بعد أن بدأت مراحل الجلاء عن القاعدة. وتشير مناقشات المجلس، كما يتضح من تقرير للورد «هانكى»، إلى أن الشركة أصبحت فى حالة تشاؤم من أن اختفاء القاعدة البريطانية على قناة السويس سوف يعرى تماما وجودها فى المنطقة. واتخذ المجلس قرارا بضرورة القيام بحملة دعاية مكثفة لكشف نوايا الحكومة المصرية المعادية للغرب ومصالحه، شريطة ألا يظهر دور الشركة فى هذه الحملة حتى لا تثير شكوك الحكومة المصرية فيها بدون داع فى هذه المرحلة.

وكلف المجلس أحد كبار مديرى الشركة بالاتصال بالأستاذ «محمود أبو الفتح» لاستطلاع آرائه فى هذا الصدد.

وفى تلك الظروف سافر الأستاذ «محمود أبو الفتح» عدة مرات من باريس إلى بغداد ثم إلى لندن، وكان نشاطه مستغربا!(١).

ومن اللافت للنظر أن مجلس إدارة الشركة فى هذه الجلسة ناقش اقتراحا

---

(١) لا أريد فى سياق هذا الكتاب أن أتعرض لقصة أسرة «أبو الفتح» فى تلك الأيام وبعدها فهى على هامش الأحداث. ولكن القصة بوثائقها تستحق أن تدرس ذات يوم على أساس حق الشعب المصرى فى أن يعرف كل شىء وبعيدا عن الادعاء والزيف!

بتخفيض رسوم المرور فى قناة السويس حتى تقل أرباحها ولا تبدو أمام المصريين غنيمة تستحق المخاطرة من أجلها.

والواقع أن «جمال عبدالناصر» لم يكن يفكر فى تلك الظروف فى شركة قناة السويس، وكان أقصى ما كان يتصوره وقتها هو أن تكون مصر مستعدة لتسلم القناة عندما ينتهى أجل امتيازها سنة ١٩٦٨. وقد كان على شبه يقين من أن أى اقتراب من شركة قناة السويس فى هذه الظروف يمكن أن يفتح أبوابا لمخاطر لا حدود لها. وفى كل الأحوال فإنه لم يفكر فى أكثر من ذلك على الإطلاق فى تلك المرحلة.



واختارت إسرائيل هذا الوقت للقيام بتجربة تلفت أنظار العالم إلى أن حرية الملاحة فى قناة السويس تتعرض لمخاطر، وأن هذه المخاطر سوف تزداد بعد إتمام الجلاء البريطانى عن قاعدة قناة السويس. وهكذا دفعت بباخرة إسرائيلية اسمها «بات جليم» إلى محاولة المرور فى قناة السويس. وكانت تتوقع أن مصر سوف تمنع مرور هذه الباخرة، ولم يكن هدفها هو المرور فى حد ذاته وإنما كان هدفها هو قرار مصرى صريح بالمنع فى هذه الظروف تستغله دعائيا وعلى أوسع نطاق عالمى. وبالفعل أوقفت مصر الباخرة «بات جليم» وصادرتها، ثم أطلقت سراح بحارتها. وأقامت إسرائيل الدنيا وأقعدتها. واستدعى الدكتور «محمود فوزى» وزير الخارجية سفراء ست من الدول الأعضاء فى مجلس الأمن ليبلغهم أن مصر لن تسمح بمرور سفن إسرائيلية فى قناة السويس. وأضاف الدكتور «فوزى» حجة جديدة إلى حجج مصر التقليدية فى منع مرور سفن إسرائيلية من قناة السويس حين قال: «**إن مصر لن تسمح بمرور سفن دولة تآمرت لنسف منشآتنا العامة، وأوفدت إلى بلادنا أفواجا من الجواسيس والمخربين** (كان يقصد محاولات تخريب وتدمير المنشآت الأمريكية فى مصر فيما عرف باسم فضيحة لافون، وكان هدفه الرد على الحملة الإسرائيلية فى الولايات المتحدة بالذات)».



وكانت الحكومة البريطانية ترصد كل ما يدور على الساحة المصرية فى

هذه الظروف، وتقيس موازين القوى فى الداخل بعين ساهرة لا تغمض عن حركة أو خلجة.

ويلفت النظر فى تلك الفترة إلحاح وزارة الخارجية البريطانية على أحد رجالها، وهو المستر «هايوود» رئيس المجلس البريطانى، فى ضرورة عقد صلات مع الدكتور «سعيد رمضان» أحد الأعضاء البارزين فى جماعة الإخوان المسلمين. وقد أجرى «هايوود» معه بالفعل مجموعة لقاءات، حرص فيها على استقصاء ما يدور فى مصر بين الحكومة وبين جماعة الإخوان المسلمين. وكان الصدام بين الاثنين وقتها على أشده. ومن المحتمل أن قيادة الإخوان فى مصر لم تكن على علم مباشر بنشاط الدكتور «سعيد رمضان» فى لندن.

كانت النذر تتجمع فى الأفق من كل الاتجاهات.

[٣]

وانفجرت العاصفة وكان انفجارها فى بغداد.

يوم ١٢ يناير سنة ١٩٥٥ وصل إلى بغداد دون إعلان السيد «عدنان مندريس» رئيس وزراء تركيا، وفى اليوم التالى - ١٣ يناير - أعلن فى بغداد أن البلدين قررا عقد اتفاق عسكرى بينهما، يرمى إلى «تحقيق التعاون وكفالة الاستقرار والأمن فى الشرق الأوسط».

وكان معنى ذلك أن العراق دخل فى حلف عسكرى مع تركيا وباكستان، وخرج من النطاق العربى. وفى ١٥ يناير قامت مظاهرات عنيفة فى سوريا قادها حزب البعث السورى ضد سياسة الأحلاف. وأصدرت أحزاب المعارضة فى العراق بيانا تعارض فيه انضمام العراق إلى حلف غربى. وأصدر الملك «سعود» من الرياض نداء إلى «نورى السعيد» (باشا) يناشده فيه الإبقاء على وحدة العرب. وقررت مصر أن تدعو رؤساء الحكومات العربية إلى اجتماع عاجل يعقد يوم ٢٢ يناير لبحث الموضوع، على أساس أن انفراد العراق بالدخول فى حلف عسكرى خارج إطار

الدول العربية يهدد كيان الجامعة العربية. وأعلنت الحكومة المصرية فى بيان الدعوة للاجتماع أنها لا تزال تؤمن بالتعاون مع العرب جميعا، وبعيدا عن النفوذ الأجنبى المتمثل فى سياسة الأحلاف. ورد «نورى السعيد» (باشا) من بغداد بأنه لن يحضر اجتماع رؤساء الحكومات العربية الذى دعت إليه الحكومة المصرية فى مقر الجامعة العربية. وكانت حجته أن هذا الاجتماع تدخل فى الشئون الداخلية للعراق وحجر على استقلاله وحريته فى التصرف.

وفى ٢٢ يناير - اليوم المقرر لانقاد مؤتمر رؤساء الحكومات العربية فى القاهرة - حضر المدعوون جميعا، وقاطع العراق. وظل المؤتمر منعقدا من يوم ٢٢ يناير إلى يوم ٦ فبراير ١٩٥٥، ولم يستطع الوصول إلى نتيجة، وكانت وقائعه صفحة من أعجب صفحات التاريخ العربى الحديث. كما أن مناقشاته عكست صورة حية للتيارات الظاهرة والخفية فى العالم العربى وقتها. وكانت متصارعة ومتداخلة واضحة وملتوية فى نفس الوقت.

كان «جمال عبدالناصر» هو رئيس الوفد المصرى، وبالتالى كان عليه رئاسة مؤتمر الحكومات العربية. وقبل موعد الجلسة الأولى بساعة واحدة تلقى برقية من «نورى السعيد» تخطره باعتذاره عن الحضور بسبب مرضه. ويبدو أن «نورى» (باشا) كان لا يتوقع إمكانية انعقاد المؤتمر أصلا فى غيبة العراق وفى ظل ضغوط مكثفة مارستها لندن ومعها واشنطن فى عواصم عربية عديدة؛ حتى تقاطع هى الأخرى المؤتمر وتمتنع عن حضوره. فلما اجتمع المؤتمر فعلا لم يجد «نورى» (باشا) مفرا من التعلل بالمرض.

ودخل الوفد اللبنانى إلى قاعة الجلسة، يحمل رسالة من الرئيس «كميل شمعون» رئيس الجمهورية اللبنانية إلى المؤتمر يخطره بأنه علم بغياب «نورى السعيد» (باشا)، وأنه بعث إليه يقترح عليه تفويض وزير خارجيته السيد «فاضل الجمالى» لحضور الاجتماع بدلا منه.

وبعد مناقشات ومداولات ظهرت فيها نوايا واتجاهات، تقرر الموافقة على اقتراح السيد «كميل شمعون». وبعد مشاورات واتصالات وصل وزير خارجية العراق إلى

مصر، وحضر جلسات المؤتمر؛ ليقول: إنه ليس مفوضا بأكثر من إبلاغ المؤتمرين بوجهة نظر العراق.

وراح السيد «فاضل الجمالى» يركز بشدة على حق العراق فى أن يرى بنفسه نوع المخاطر التى تتهدده، وحريته فى عقد اتفاق مع من يشاء من أطراف وكما يشاء. وشرح «جمال عبدالناصر» آراء مصر فى الدفاع عن العالم العربى ضد الأخطار التى تتهدده تفصيلا، وروى للمؤتمر وقائع اجتماعاته مع «نورى السعيد» (باشا) وكيف أنه فشل فى الوصول معه إلى حل يصون الحد الأدنى من وحدة العمل العربى.

وكان الأمير «فيصل» يرأس وفد السعودية، وقد اشترك مع «جمال عبدالناصر» فى توضيح وجهة النظر العربية فى عدم جواز انفراد أى دولة عربية وحدها بموقف يضر بمصالح المجموعة.

وكان الوفد السورى برئاسة «فارس الخورى» (بك) رئيس الوزراء حائرا بين مصر والسعودية من جانب، وبين العراق من جانب آخر. وكان يريد أن يرفض سياسة الأحلاف، ولكنه لم يستبعد كما قال أن تجىء حكومة سورية أخرى بعد حكومته لتقرر أمرا آخر.

وكانت لبنان و«كميل شمعون» رئيسه، يناور لكى يكسب وقتا ولكى يخرج المؤتمر بدون نتيجة.

وانتهى المؤتمر فعلا بعد خمس عشرة جلسة بغير نتيجة، لكن محاور الحركة فى العالم العربى تحددت فيه بطريقة قاطعة:

● مصر والسعودية مصممتان.

● سوريا حائرة بين الاثنين من ناحية، وبين العراق من ناحية أخرى.

● البعض يناور لكسب الوقت.

● البعض الآخر لم يستطع أن يحزم رأيه على شىء وهو يفضل أن يبقى بعيدا عن أى شىء، حتى ينجلى الغبار عن الموقف العربى كله، ويتبين الخط الأبيض من الخط الأسود!

الفصل السادس

لقاء «عبدالناصر» و«إيدن»

[١]

انتهى مؤتمر رؤساء الحكومات العربية فى يوم ٦ فبراير، وفى يوم ٢٠ فبراير وصل «أنتونى إيدن» إلى القاهرة ليعقد أول وآخر اجتماع له مع «جمال عبدالناصر».

كان «إيدن» قد قرر أن يمر بالقاهرة فى طريقه من لندن إلى بانكوك (عاصمة تايلاند) لحضور اجتماع للمجلس الوزارى لحلف جنوب شرق آسيا. وقد أراد «إيدن» أن يزور القاهرة لكى يختبر بنفسه نوايا عبدالناصر بعد توقيع اتفاقية الجلاء وبدء تنفيذها فعلا.

كان «إيدن» يعرف قبل مجيئة للقاهرة أن «ونستون تشرشل» سوف يتخلى له فى ظرف أسابيع عن رئاسة الوزارة، رغم أنه ظل يعاند فى ذلك حتى اللحظة الأخيرة. ولقد وصل الأمر بين الرجلين إلى حد أن «إيدن» وسّط الرئيس الأمريكى «أيزنهاور» بينه وبين «تشرشل» أثناء مؤتمر برمودا. وتردد «أيزنهاور» فى قبول هذه المهمة الصعبة، رغم اعتقاده كما قال لـ«إيدن» بأن «الرجل العجوز قد أصيب بالخرف، وأن صممه الكامل أصبح مرهقا له، ومرهقا لكل من تحتم عليهم الظروف أن يتعاونوا معه». وحاول «إيدن» أن يركب مع «تشرشل» الباخرة «كوين مارى» التى كانت ستقل رئيس الوزراء وحاشيته عائدين من مؤتمر برمودا إلى إنجلترا، ولكن «تشرشل» راوغه وطلب إليه أن يسافر على عجل بالطائرة إلى لندن، بحجة أن رئيس الوزراء ووزير الخارجية غابا عن العاصمة فترة طويلة، ومن الضرورى أن يذهب

أحدهما بسرعة إلى لندن ليباشر تسيير الأمور هناك. وقال «تشرشل» لمعاونيه وبينهم «كولفيل»[1] الذى كان سكرتيرا له وموضع سره: «إن إلحاح أنتونى على وراثتى أصبح لا يطاق، وأنا أنظر فى عينيه فى كل مرة نلتقى فيها وأحس أن سؤاله عن موعد اعتزالى يطل منهما بفظاظة. وأنا أعلم أنه كان يريد أن يجىء معنا فى الباخرة لا رغبة فى صحبتى، ولكن لكى تسنح له فرصة أخرى يسألنى فيها: متى أذهب؟ وقد فوّت عليه الفرصة وشحنته إلى لندن بالطائرة، وأطاع على مضض، وإن كان يعتقد أننى كنت قاسيا فى التخلص منه».

واستغل «إيدن» فرصة وجوده المبكر فى لندن قبل «تشرشل» واجتمع مع كبار زعماء حزب المحافظين وأفضى إليهم بتفاصيل عن «تصرفات الرجل العجوز الذى لم يعد يصلح والذى آن له أن يعتزل»، ثم رتب مواجهة بينهم وبين «تشرشل» الذى عاد على مهل بالباخرة. وفى اجتماع عقد فى المقر الريفى لرئيس الوزراء فى «تشكيرز» حضره «إيدن» وغيره من كبار زعماء حزب المحافظين، اضطر «تشرشل» تحت الضغط إلى أن يحدد موعدا نهائيا لـ«ذهابه». (كانت هذه هى المواجهة الثانية من نفس النوع وفى نفس المكان).

وهكذا جاء «إيدن» إلى القاهرة، وهو يعرف أن رئاسة الوزارة تنتظره بعد أسابيع قليلة.



والتقى الرجلان فى جلسة محادثات رسمية ظهر يوم ٢٠ فبراير، وكانت الجلسة فى الواقع للتعارف ولاستعراض العلاقات بين البلدين، وتركزت وقائعها حول اتفاقية الجلاء، وقال «إيدن» إنه يعرف تاريخ العلاقات بين البلدين جيدا، وإنه يأمل الآن فى أن تبدأ بينهما مرحلة جديدة تقوم على الثقة، وإن الحكومة البريطانية وصلت إلى آخر الشوط مع مصر، والآن حان الوقت لكى تفى مصر بالتزاماتها تجاه العالم الحر - كما قال.

---

(١) روى السير «جون كولفيل» السكرتير الخاص لتشرشل فى مذكراته «على حافة القوة» تفاصيل ووقائع لعبة القط والفار بين «تشرشل» و«إيدن».

ثم قال «إيدن»: إنه هو الذى وقع معاهدة سنة ١٩٣٦ مع «النحاس» (باشا) ووفد المفاوضات الذى صحبه إلى لندن فى ذلك الوقت. وراح يروى كيف فوجئ بالباشوات المصريين القدامى وهم يلبسون الطرابيش الحمراء القديمة داخلين جماعة إلى قاعة «لانكستر هاوس» الذى انعقد فيها اجتماع التوقيع. ثم روى أنه لا يزال يحتفظ بطابع البريد التذكارى الذى صدر فى مصر بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ واحتفالا بها، وأن صورته هو شخصيا كانت تتوسط هذا الطابع، ثم قال إنه كان يريد أن يجيء إلى مصر لكى يقوم بالتوقيع على الاتفاقية الأخيرة بنفسه، ولكنه لم يتمكن من ذلك واضطر إلى إرسال وزير الدولة للشئون الخارجية معه وهو «انتونى ناتنج» لتوقيعها بدلا منه. ثم أضاف أنه لم يشأ أن يترك هذه الفرصة تفوته، ولهذا فإنه وقع بنفسه تذكاريا على نسخة من هذه الاتفاقية، وبعث بها إلى الرئيس «جمال عبدالناصر». وكان هناك اتفاق على أن قضايا المستقبل فى العلاقات بين البلدين سوف تناقش فى اجتماع بعد العشاء الذى دعا إليه السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى فى دار السفارة البريطانية بجاردن سيتى.



كان السير «رالف ستيفنسون» فى انتظار وصول الرئيس «جمال عبدالناصر» عند المدخل الخارجى للسفارة. وكان «أنتونى إيدن» يقف على آخر درجات السلم المؤدى من المدخل إلى صالونات الاستقبال. وكان «إيدن» قد أعد عدته للتأثير بأكثر ما يستطيع على ضيفه. ولعله كان مخلصا فى اتخاذ هذه المناسبة بداية لعلاقة أفضل بينهما شخصيا وبين البلدين. وبصرف النظر عن النوايا، فالواقع بصرف النظر عن إرادات الأشخاص، أن حقائق التاريخ وتوجهات المستقبل كانت تشكل حاجزا يصعب القفز فوقه.

وقد بدأ «إيدن» فمد يده مرحبا بـ«جمال عبدالناصر» قائلا بلغة عربية فصحى: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وأهلا بكم عندنا». ودهش «جمال عبدالناصر» فلم يكن قد خطر بباله أن «إيدن» يعرف اللغة العربية، وظن أنها عبارة محفوظة رددها «إيدن» بحفظها سماعيا، ولكن «إيدن» راح يشرح له أنه فى أكسفورد

تخصص فى الآداب الفارسية والعربية، وأنه يعرف الفارسية بطلاقة كما أنه يفهم - إلى حد ما - اللغة العربية، ويحفظ أبياتا كثيرة من الشعر العربى وأمثلة الحكمة العربية. ووضع «إيدن» يده تحت إبط «جمال عبدالناصر» وراح يمشى معه إلى حجرة الاستقبال. وفى حجرة الاستقبال قام «إيدن» بتقديم «جمال عبدالناصر» إلى زوجته الليدى «كلاريسا تشرشل» (قريبة لرئيس الوزراء «ونستون تشرشل») وإلى زوجات بقية أعضاء الوفد البريطانى الذين كانوا قد التقوا به من قبل فى جلسة المحادثات الصباحية، وفى مقدمتهم المارشال «هادرينج» رئيس أركان حرب الإمبراطورية.

كان التناقض كبيرا بين الجانبين، فقد كان «إيدن» وبقية أعضاء الوفد البريطانى يرتدون ملابس السهرة، وكان المارشال «هاردينج» مهيب الطلعة فى لباس السهرة العسكرى المزين بالأوسمة والنياشين. وكانت سيدات الوفد البريطانى فى فساتين السهرة الطويلة، وكانت أكثرهن أناقة «كلاريسا» زوجة «إيدن» التى كانت تصغره بربع قرن. فقد كانت ترتدى فستانا أزرق اللون رصعته قطع من الحلى الماسية المتوهجة.

وأما «جمال عبدالناصر» فقد كان لا يزال يرتدى حلته العسكرية وعلى كتفه رتبة البكباشى التى لم يتخل عنها، وكذلك كان الحال بالنسبة لرفاقه الذين كانوا معه من أعضاء مجلس قيادة الثورة («عبدالحكيم عامر» و«عبداللطيف البغدادى» و«زكريا محيى الدين»). وكان الدكتور «محمود فوزى» يرتدى حلة رمادية داكنة اللون. كان الإنجليز فى القاعة يمثلون بقايا الأبهة الإمبراطورية، وكان المصريون نموذجا للتقشف الثورى. وبدا التباين شديدا بين الجانبين.

وكان «إيدن» لا يزال يواصل حديثه عن أيام أكسفورد واللغة الفارسية والعربية والشعر وأمثلة الحكمة السائرة، والآن بدأ يتحدث عن القرآن فقال: إنه قرأه أيام أكسفورد وقرأ مراجع إسلامية كثيرة معه، وأضاف «إنه من سوء الحظ أن الإسلام غير مفهوم فى الغرب، وربما أن المستشرقين لم يحسنوا النقل عن المصادر الأساسية فى الإسلام». ثم مضى «إيدن» يتحدث عن الحضارة الإسلامية والإسهام المصرى والفارسى فيها بالتحديد.

ولاحظ «إيدن» أن «جمال عبدالناصر» يشرب عصير الليمون فسأله «هل يضايقك إذا كنت أنا أشرب ويسكى؟» وابتسم «جمال عبدالناصر» قائلا «إن ذلك لا يضايقه على الإطلاق فكل الناس يألفون ما تعودوا عليه». وفى هذه اللحظة أقدم رئيس الخدم فى السفارة ليغير كأس «إيدن» كان الثلج فيه قد ذاب أثناء خروجه لاستقبال «جمال عبدالناصر». ووجدها «إيدن» فرصة لإثبات تمكنه من اللغة العربية فقال لرئيس الخدم: «ألا ترى أنى لم أفرغ منه بعد، وألم يقل لك أحد أن العجلة من الشيطان؟» وضحك الجلوس، وكانت «كلاديسا» ترمق زوجها بفضول ولعلها كانت تستكشف استشراقه عمليا للمرة الأولى.

ولاحظ «إيدن» أن «جمال عبدالناصر» ينظر فيما حوله فسأله «هل هذه أول مرة تجىء فيها إلى هذا البيت؟»، ورد «جمال عبدالناصر» بالإيجاب، وأضاف «أنه سمع كثيرا عن هذا البيت، فقد كانت مصر تحكم منه فى وقت من الأوقات». وقاطعه «إيدن» قائلا «تقصد أنها كانت تتلقى النصيحة؟»، ولم يتراجع «جمال عبدالناصر» **فقال «إنهم كانوا يصدرون الأوامر ولا يكتفون بمجرد النصيحة». ثم أضاف «إن حادث ٤ فبراير لم يكن مجرد إسداء نصيحة».** ورد «إيدن» بحديث طويل عن «مزايا اللورد «كيلرن» وعن ذكرياته هو شخصيا مع الملك فاروق وباشوات مصر القدامى».



وانتهت الأحاديث التمهيدية ودخل «إيدن» إلى الموضوع الذى يشغله من باب السؤال عن نتائج مؤتمر رؤساء الحكومات العربية الأخيرة، وقال إنه لا يفهم سببا لانقسام العالم العربى. ورد «جمال عبدالناصر» بأن الانقسام كان بسبب الخلاف فى رؤية المستقبل العربى، وأنه كان يفضل ألا يندفع «نورى السعيد» (باشا) إلى الدخول فى حلف خارج العالم العربى. وسأل «إيدن» عما إذا كان الحلف هو سبب الخلاف أم أن الخلاف يرجع إلى الصراع التقليدى بين شط النيل وشط العرب (قالها باللغة العربية، وكان يقصد أن هناك تناقضا بين مصر والعراق على النفوذ فى المنطقة). ثم أضاف «إيدن» أنه يظن أيضا أن العداء بين السعوديين والهاشميين لعب دوره فى هذا الخلاف. وانتقل «إيدن» من هذه النقطة إلى سؤال «جمال

عبدالناصر» صراحة عن الأسباب التى تدعوه إلى معارضة الاحلاف، وكيف يرى إذن مستقبل الدفاع عن الشرق الأوسط؟ وكان واضحا أن «إيدن» يؤيد «نورى السعيد» (باشا) فى توقيع الحلف مع تركيا. ودخل «جمال عبدالناصر» فى شرح عام عن تصوره لأمن الشرق الأوسط، وحدد احتمالات الخطر الخارجى على المنطقة، واستبعد قيام حرب عالمية فى ظل الموازين النووية، وبالتالى استبعد احتمال هجوم روسى على الشرق الأوسط. وقاطعه «إيدن» قائلا: «ولكنك يا عزيزى رئيس الوزراء وقعت معنا قبل شهور اتفاقية يمكن بمقتضاها إعادة تشغيل قناة السويس فى السنوات القليلة القادمة إذا تعرضت تركيا لهجوم عسكرى مباشر». وقال «جمال عبدالناصر» إن هذا صحيح وأن مفاوضات الجلاء تعثرت لهذا السبب عدة شهور بسبب إلحاح الطرف البريطانى على ذلك، وقد قبل التوقيع وهو يعلم أنه احتمال لن يتحقق. ولو خطر بباله أنه خطر ماثل لتردد فى التوقيع. وسأله «إيدن» «من أين إذن تتوقعون الخطر على الشرق الأوسط؟» وهنا قفز المارشال «هاردنج» إلى التدخل فى الحديث فقال لـ«جمال عبدالناصر» **«إنكم لا تتوقعون خطرا إلا من إسرائيل وحدها؟»** ويبدو أن «إيدن» شعر أن المارشال «هاردينج» أقحم موضوع إسرائيل قبل أوانه فالتفت إليه يقول له **«ألم يكن مناسبا أن تنتظر، وألم تسمع عن مثل عربى يقول «لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك»؟** «وقال المثل باللغة العربية ثم راح يترجمه بالإنجليزية للمارشال «هاردينج»).

وعلى مائدة العشاء خف الحديث عن السياسة، فقد راحت ليدى «إيدن» تحكى عن زيارتها للمتحف المصرى فى الصباح مع قرينة السفير البريطانى، ثم تشعب الحديث إلى الحضارة المصرية القديمة، وانتهز «إيدن» الفرصة ليسأل «جمال عبدالناصر» عن مدى إحساس مصر بانتمائها للعالم العربى؟ وعما إذا كانت مصر شيئا مختلفا عن بقية البلدان العربية؟ وعما إذا كان هذا الاختلاف لا يسحب آثاره على العصر الحديث بما فى ذلك اختلاف الرؤى السياسية؟ وهكذا عادت السياسة إلى المائدة، وقادت ليدى «إيدن» بقية السيدات إلى صالون الاستقبال، وظل الرجال حول مائدة العشاء يتناولون القهوة ويبدأون محادثاتهم المكثفة.

وفى المحصلة كان «إيدن» يلح على «جمال عبدالناصر» لكى لا يعارض اتجاه العراق إلى سياسة رآها فى صالحه ووجد فيها أمنه، وأن من حق «جمال عبدالناصر» أن يقرر بالنسبة لمصر، لكنه ليس من حقه أن يعترض سبيل دولة عربية أخرى إلى ما تراه، خصوصا وأن الحملة على الحلف العراقى ـ التركى ـ الباكستانى تجر فى ذيولها حملة على السياسة البريطانية والسياسة الأمريكية، وهو ما يؤدى إلى إساءة العلاقات بين مصر والغرب عموما، وكذلك لا يؤدى إلى إثبات حسن النوايا بعد الاتفاقية الأخيرة. وحاول «جمال عبدالناصر» أن يشرح لـ«إيدن» وجهة نظره وهى تتلخص فى نقطتين:

□ **الأولى:** إنه ليس من حق بلد عربى أن ينفرد وحده بسياسة طالما هو عضو فى الجامعة العربية، وقابل لمسئوليات عضويته وما تعنيه من تحديد لهويته والتزامه.

□ **والثانية:** إنه على فرض أن بلدا عربيا قرر أن يختار لنفسه ما يرى، فليس من حقه أن يضغط على دولة عربية أخرى لكى تتبعه فى نفس السياسة، وهو يعلم أن ذلك يؤدى إلى بعثرة العالم العربى كله.

وبعد مناقشة طويلة سأل «إيدن» «جمال عبدالناصر» سؤالا مباشرا: «لنفرض أن الحكومة القائمة فى العراق اختارت أن تنضم إلينا، ولم تحاول أن تدعو أحدا غيرها لكى يسلك نفس طريقها، فهل تعترض مصر على ذلك؟»

ورد «جمال عبدالناصر»: «إذا اختارت الحكومة العراقية لنفسها ما تشاء وأعلنته صراحة وتحملت نتائجه، فنحن على استعداد لأن نعتبر ذلك قضية من قضاياها الخاصة تتصرف فيها أمام شعبها متحملة مسئولياتها كما تشاء. وقد نبدى رأينا فى ذلك لكننا فى النهاية نتركها وشأنها. **وإنما يتحول الأمر إلى معركة إذا ما حاولت ضم آخرين بوسائل الضغط المتاحة لهم لكى يتبعونها».** وقال «جمال عبدالناصر» إن «**لديه معلومات قاطعة بان الحكومة العراقية تمارس ضغوطا على لبنان وسوريا والأردن، ولا تستطيع مصر أن تقف ساكتة خصوصا وأن تحول كل الدول العربية فى المشرق إلى مخاطر غير مؤكدة فى الشمال يترك مصر وحيدة أمام إسرائيل، وهذه قضية تخص الكل ولا تخص مصر بمفردها».**

وتطرق «إيدن» إلى الصـراع العـربى الإسـرائيلى، يحـاول أن يتكشف تصـورات «جمال عبدالناصر» للحل، وكان رأى «جمال عبدالناصر» بصفة عامة أنه لا مصر ولا هو شخصيا يملكان حلا، وإن كان هو على استعداد للمجازفة بالقول أن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٧ بالتقسيم يمكن أن يكون مقبولا لدى العرب رغم أنهم يجدونه قرارا ظالما.

وقرب نهاية الاجتماع أبدى «إيدن» قلقه من تصريحات «جمال عبدالناصر» المعادية للأحلاف، وقال: إنها لا تحرج الحكومة البريطانية فقط ولكنها تحرج الولايات المتحدة أيضا. ثم وجه ما يمكن اعتباره تحذيرا مبطنا من خطر مثل هذه الدعايات، فقد قال: «إن الثورة التى وقعت سنة ١٩٥٢ لم تفاجئه. وفى الحقيقة فإنه كان يتوقعها لأن النظام القديم فى مصر وقع أسيرا لدعاياته ضد الإنجليز». ثم أضاف «إيدن» تحذيرا مبطنا آخر حين قال لـ«جمال عبدالناصر» «إن بريطانيا والولايات المتحدة متفقتان على استراتيجية واحدة بينهما، وهذه الاستراتيجية هى التى تحدد سياسة كل منهما، ولسوف يكون من الخطأ أن يحاول أحد خلق مشاكل بينهما. وأن سوء الفهم فى ذلك يرجع فى الغالب إلى تصرفات الدبلوماسيين المحليين لكل منهما فى بلاد أخرى. ففى التنافس بين هؤلاء الدبلوماسيين سواء كانوا البريطانيين أو الأمريكيين، يحاول هؤلاء الدبلوماسيون الحصول على نقط إضافية بادعاء خلافات بين البلدين لا أساس لها، وفى العادة فإن الطرف الثالث هو الذى يقع فى المشكلة». ورد «جمال عبدالناصر» على الملاحظتين.

وكان آخر سؤال وجهه «إيدن» لـ«جمال عبدالناصر» قبل أن ينتقل من موضوع الأحلاف إلى غيره هو: «هل لو طلبنا من نورى أن يحتفظ بحلفه لنفسه وألا يدعو غيره لدخوله، يتوقف سيل الدعايات والعمل السياسى المعادى للغرب من القاهرة؟» ورد «جمال عبدالناصر» بالإيجاب.

ثم طلب «إيدن» إلى المارشال «هاردينج» أن يعرض للموقف الدولى ومخاطر الصدام الدولى فيما يخص الشرق الأوسط، وذلك من وجهة نظر هيئة أركان حرب

الإمبراطورية. وتحدث المارشال «هاردينج» فى هذا الموضوع لمدة ربع ساعة، ثم جرت مناقشة للموقف الدولى واحتمالاته على هذا الأساس.

وانضم الرجال إلى السيدات فى قاعة الاستقبال لفنجان قهوة أخير، ثم قام «إيدن» ومعه المارشال «هاردينج» والسفير البريطانى بمرافقة «جمال عبدالناصر» إلى الباب الخارجى للسفارة. وعندما تحركت السيارة بأعضاء الوفد المصرى أبدى «عبدالحكيم عامر» ملاحظة على أبهة الزى العسكرى للسهرة الذى كان يرتديه المارشال «هاردينج» وقال «جمال عبدالناصر» ضاحكا «**كانوا فى منتهى الأناقة وكنا فى منتهى البهدلة**».



بعد أسابيع أصبح «إيدن» رئيسا للوزراء، وكانت أول رسالة تلقاها منه «جمال عبدالناصر» هى «أن الحكومة العراقية سوف تفرض «موراتوريم - أى تجميد» - على دعوتها لدول عربية أخرى بالانضمام لحلفها مع تركيا (الذى أصبح يعرف باسم حلف بغداد)، وبناء عليه فإنه يتوقع أن يفى الرئيس «جمال عبدالناصر» بوعده، وأن يوقف الحملات ضد هذا الحلف وضد الغرب».

[٢]

كأن الحوادث كانت تتوالى بترتيب زمنى مقصود: اتفاقية الجلاء - «نورى السعيد» يخطط مع تركيا ثم مع باكستان لإقامة حلف فى الشرق الأوسط - «إيدن» يجتمع مع «جمال عبدالناصر» فى القاهرة يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٥ - وفى يوم ٢٨ من فبراير قامت إسرائيل بغارتها الشهيرة على غزة.



وكانت الفترة السابقة مباشرة على اجتماع «عبدالناصر» و«إيدن» قد شهدت تطورات هامة فى المنطقة أو مؤثرة عليها.

فقد اجتمع «جمال عبدالناصر» مع المارشال «تيتو» على ظهر السفينة

اليوجوسلافية «جاليب» (معناها بالعربية طائر النورس)، وقد ركب «جمال عبدالناصر» السفينة فى السويس وغادرها فى الإسماعيلية بعد خمس ساعات من الحوار مع «تيتو» دار معظمه حول الموقف الدولى واحتمالاته.

ثم أدى الموقف فى شمال أفريقيا إلى استقالة حكومة «منديس فرانس» فى باريس.

وعاد السيد «فارس الخورى» بعد اجتماعات مجلس رؤساء الحكومات العربية فى القاهرة، ليجد الموقف معقدا فى دمشق والمشاعر جامحة ضد حلف بغداد، فقدم استقالته وألف السيد «صبرى العسلى» وزارة سورية جديدة».

وحدثت تطورات كبرى فى الاتحاد السوفيتى، فقد أقصى «مالينكوف» رئيس الوزراء الذى خلف «ستالين» وأصبح نيكيتا خروشوف» زعيما جديدا للاتحاد السوفيتى يمسك فى يده بسلطة الحزب والحكم معا، وإن كان «بولجانين» عين رئيسا للوزراء كما أن المارشال «جوكوف» عين وزيرا للدفاع.

كان الملك «سعود» قد فقد أعصابه ووجه نداء عاما إلى الشعوب العربية كلها قال فيه: «**إن ما أقدم عليه حكام بغداد خيانة عظمى والسكوت عليه جريمة، وأن الدخول فى أحلاف مع الغرب يعرض العرب لحرب أهلية ويفتح الباب للصلح مع إسرائيل**».

ومر «نهرو» بالقاهرة قبل لقاء «جمال عبدالناصر» مع «إيدن» بأسبوع. وقد اجتمع الاثنان معا لمدة ثلاث ساعات وبحثا الموقف ضد الأحلاف والأوضاع فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى. وبالطبع فإن «نهرو» أصبح يرى فى القاهرة - إلى جانب مكانتها - سندا أساسيا إزاء انضمام باكستان إلى حلف الدفاع عن الشرق الأوسط.

ويوم ١٧ من فبراير - أى قبل اجتماع «عبدالناصر» و«إيدن» بثلاثة أيام - عاد «بن جوريون» إلى السلطة وتولى وزارة الدفاع بدلا من «لافون» الذى استقال بعد أن تكشفت فضيحة عمليات التخريب الإسرائيلية ضد المنشآت الأمريكية فى مصر.



وفى اليوم التالى لاجتماع «عبدالناصر» و«إيدن» وهو نفس يوم سفر «إيدن» وصل الملك «حسين» بعد الظهر إلى القاهرة، ثم لحق به الأمير «فيصل» ولى العهد ووزير الخارجية فى المملكة العربية السعودية.

وفى يوم ٢٤ فبراير وصل الرئيس التركى «جلال بايار» إلى العراق وتم توقيع ميثاق حلف بغداد.

وفى يوم ٢٨ من فبراير وفى مواجهة إعلان إقامة حلف بغداد اقترحت سوريا على مصر مشروعا لإقامة جيش عربى موحد يضم الجيش المصرى والسورى، ووافقت مصر على الفور.

وفى يوم ٢٨ فبراير وقعت الغارة الإسرائيلية على غزة.



كانت الغارة على غزة هجوما إسرائيليا لا مبرر له على مواقع الجيش المصرى فى غزة راح ضحيته ٣٢ جنديا مصريا عدا جرحى من العسكريين والمدنيين فى موقع العدوان.

وكان باديا من اللحظة الأولى أن الغارة على غزة عمل سياسى أكثر منه عملية عسكرية. وكان القصد منه أن يحقق عدة أهداف فى وقت واحد: **أولها إحراج القاهرة وإظهار عجزها أمام العالم العربى الذى انقسم على نفسه بسبب الأحلاف الغربية، ثم ما يترتب على ذلك من هزة تؤثر على وضع النظام فى مصر، وأخيرا فإن الغارة كانت إنذارا لمصر بأن خطوطها مع إسرائيل مكشوفة، وأنه كان أولى بها أن تترك الإنجليز فى منطقة قناة السويس ولا تلح عليه بالجلاء عن أراضيها.**

ورأى «جمال عبدالناصر» أهداف الغارة على حقيقتها، ومع أنه أعلن أن مصر سوف «ترد على العدوان بالعدوان»، فقد أدرك أن حقائق الموقف تفرض عليه أن يمسك أعصابه، وأن يرتب نفسه للرد فى الوقت الذى يناسبه وبالطريقة التى يراها. ولم تمض غير أسابيع قليلة حتى أمر بإطلاق موجات من جنود الصاعقة يتسللون إلى الأراضى الإسرائيلية، ثم يردون فى العمق على العدوان.

وتصاعد الخطر على خطوط الهدنة مع إسرائيل، لكن «جمال عبدالناصر» أصبح يحس بمدى حاجة الجيش المصرى إلى إعادة تسليح نفسه مهما كان الثمن أو كان المصدر.



وأتم «جمال عبدالناصر» بسرعة اتفاقية توحيد الجيشين المصرى والسورى وأسفر ذلك عن إنشاء تنظيم دفاعى وقيادة مشتركة دائمة وتنسيق للصناعات الحربية فى البلدين.

ثم أعلنت المملكة العربية السعودية أنها ستنضم إلى الاتفاق المصرى السورى كشريك كامل فيه. وبعد يومين تلقى الرئيس «جمال عبدالناصر» من الإمام «أحمد» إمام اليمن برقية يقول فيها: «قمنا بعمل استخارة وظهر لنا أن نجمك يعلو على نجم الآخرين، وقررنا معتمدين على الله أن ننضم إليكم وإلى الشقيقتين سوريا والسعودية».

ولم يقتنع «جمال عبدالناصر» بهذه البرقية ولا بأسلوب الاستخارات. ومن ناحية أخرى فقد رأى أن انضمام اليمن إلى الميثاق الجديد. كسب معنوى وإن خلا من أى قيمة عسكرية أو سياسية. وبعث للإمام «أحمد» ببرقية يرحب به عضوا فى الميثاق الجديد.



وفى نفس الوقت بدأت تركيا تحشد قواتها ضد سوريا، وبدا أن دمشق قد أصبحت بؤرة الصراع فى المنطقة.

ولم تتأخر القيادة الجديدة فى الاتحاد السوفيتى عن دخول ساحة الشرق الأوسط التى أصبحت أكثر ساحات الحرب الباردة تفجرا واشتعالا، وهكذا أصدر الاتحاد السوفيتى تحذيرا لتركيا من مغبة الضغط العسكرى الذى تمارسه على حدود سوريا.

وفى اليوم التالى قامت إسرائيل بغارة ثانية على مركز مصرى فى غزة، وكان

«جمال عبدالناصر» يبيت ليلته فى العريش بعد أن قضى نهاره فى غزة يرى بنفسه آثار العدوان السابق عليها(١).



وفى يوم ١٠ من مارس دعا «جمال عبدالناصر» السفير الأمريكى الجديد «هنرى بايرود» إلى لقائه، وقال له بأصرح عبارة ممكنة: «**إن صوته قد بح فى طلب أسلحة الجيش المصرى. وأن الولايات المتحدة حتى الآن عطلت كل الصفقات فى حين أنها عقدت صفقات مع إسرائيل ومع العراق**».

ثم قال له فى شبه تحذير نهائى:

«حتى الآن كنا نطلب السلاح لمجرد تسليح الجيش المصرى، وأما الآن فإن السلاح بالنسبة لنا أصبح قضية حياة. وإنكم تعرفون أننى بعد الثورة قمت بتخفيض ميزانية القوات المسلحة بمقدار خمسة ملايين جنيه عما كانت عليه قبل الثورة، وأما الآن وبعد الغارات المتكررة على قواتنا فإن الأمر أصبح لا يحتمل. لقد كنت - كما شرحت لوزير الخارجية «دالاس» - أعتبر أن الخطر الإسرائيلى يكمن فى تخلفنا عن التنمية، وأنا الآن لا أستطيع أن أقنع نفسى بشىء من ذلك فنحن لا نريد أن نبنى المصانع والمستشفيات والمدارس لكى نسلمها لإسرائيل ويتحول الشعب المصرى بدوره إلى شعب من اللاجئين». ثم أضاف «جمال عبدالناصر» بأنه «مصمم على أن يكون فى يد الجيش المصرى ما يحتاجه من السلاح للنهوض بمسئولياته، وإذا لم

---

(١) كانت القوات المصرية فى المواقع الأمامية فى حالة توتر شديد. وقد حدث أثناء جولة «جمال عبدالناصر» قرب الحدود أن اقترب منى أحد ضباط المخابرات، وسألنى إذا كنت أحمل معى أوراقا فيها أى شىء له أهمية مما سمعته فى اجتماعات «عبدالناصر» مع القيادات العسكرية؟ وعندما سألته إيضاحا لسؤاله قال: «نحن الآن قرب المواقع الإسرائيلية. وقد تصادفنا فى أى وقت دورية عسكرية إسرائيلية ومن الخطر أن يكون معك ورق يسجل أى شىء له حساسية». ونظرت إليه مندهشا وقلت له: «هل تعتقد أنه إذا قابلتنا دورية عسكرية إسرائيلية فإن أحدا فيها سوف يلتفت إلى ما قد يكون فى جيبى من أوراق، إن معنا الآن جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فإذا أخذوهما فأى أهمية تصبح لحروف على ورق». وتنبه ضابط المخابرات إلى أبعاد الموقف وبعد تردد قال لى: «معك حق»!

تكن الولايات المتحدة على استعداد لبيع السلاح لنا فلتقل ذلك مرة واحدة وإلى الأبد حتى نعرف كيف نتصرف».

وراح «بايرود» يرجو «جمال عبدالناصر» أن يتجمل بالصبر، وألا يترك للاستفزاز سبيلا للتأثير عليه. وحسم «جمال عبدالناصر» الموقف بأن قال لـ«بايرود» إنه يرجو أن تصل وجهة نظره التى أبداها الآن إلى واشنطن، وأن يتلقى ردا عليها فى أسرع وقت ممكن.

[٢]

وسافر «جمال عبدالناصر» على الطريق إلى باندونج مساء يوم ٨ أبريل سنة ١٩٥٥.

وكان اشتراك مصر فى مؤتمر باندونج معركة كبرى فى حد ذاتها.

فمن ناحية بذلت بعض الدول الأجنبية الغربية محاولات مستميتة لمنع مصر من أن تشترك فى هذا المؤتمر الأول للتضامن الآسيوى الأفريقى، وتحمل دورها فى حركة التحرر الوطنى. ووصل الأمر إلى حد أن «كيرميت روزفلت» ـ مسئول وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ جاء بنفسه إلى القاهرة لمقابلة «جمال عبدالناصر» يحمل تقريرا بأن واشنطن لديها معلومات بأن جماعة الإخوان المسلمين ترتب لاغتيال «جمال عبدالناصر» أثناء وجوده فى إندونيسيا. وكان «روزفلت» يحمل معلومات تفصيلية عن نشاط الإخوان وقوتهم فى ذلك البلد الآسيوى المسلم البعيد، كما أن «روزفلت» كان يحمل معلومات مفصلة عن اجتماعات عقدت فى جاكارتا، وقررت فيها تنظيمات الإخوان هناك أن تنتقم من «جمال عبدالناصر» انتقاما لما جرى للإخوان المسلمين فى مصر. (بعد محاولة اغتيال «جمال عبدالناصر»).

وأزاح «جمال عبدالناصر» كل هذه التقارير والمعلومات جانبا قائلا: **«إنه لن يتخلف عن اجتماعات باندونج».**

□

وكان «جمال عبدالناصر» قد خاض معركة ناجحة ضد اشتراك إسرائيل فى مؤتمر باندونج.

كانت الدعوة الأصلية لباندونج موجهة من خمس دول آسيوية، اجتمعت فى كولومبو وطرحت فكرة اللقاء الآسيوى الأفريقى الواسع ودعت إليه، ورأى الداعون توجيه دعوة إلى إسرائيل بوصفها بلدا آسيويا. واتصل «جمال عبدالناصر» بـ«نهرو» وبـ «أونو» رئيس وزراء بورما، يوضح لهما أن حضور إسرائيل للمؤتمر معناه أن تقاطعه كل الدول العربية. واقتنع «نهرو» ولكن «أونو» لم يقتنع بسهولة فبعث لـ«جمال عبدالناصر» يقول له إنه «لا يستطيع أن يسحب الدعوة من بلد فى آسيا وجهت إليه الدعوة فعلا» وأرسل إليه «جمال عبدالناصر» خطابا مفصلا يشرح فيه تركيبة إسرائيل ودورها فى خدمة الاستعمار فى المنطقة. وعاد «أونو» يكتب لـ«جمال عبدالناصر» بأن «بقية الدول الآسيوة قد تطلب حجة مقنعة ومحددة لمنع إسرائيل من الحضور». ثم أضاف «إنه قد لا يكون ملائما للعرب أن يفرضوا صراعهم مع إسرائيل على أصدقائهم فى آسيا وأفريقيا». ثم تساءل «أونو» عن الأساس الذى يمكن أن يرتضيه العرب لحل الصراع العربى الإسرائيلى. وبعث إليه «جمال عبدالناصر» ليقول له «إن العرب على استعداد لقبول قرار التقسيم، فإذا ما قبلته إسرائيل، فإن الطريق يصبح ممهدا». وبعد أيام - ويبدو أن «أونو» اتصل بإسرائيل وعرف رفضها القاطع لقرار التقسيم - اتصل «أونو» بـ«جمال عبدالناصر» ليقول: «إنه تأكد له الآن أن إسرائيل مصممة على العدوان ولا تريد حلا معقولا، ولهذا قرر بالتشاور مع «نهرو» ومع بقية مجموعة كولومبو سحب الدعوة الموجهة لإسرائيل للاشتراك فى مؤتمر باندونج».



فى طريقه إلى باندونج قام «جمال عبدالناصر» بزيارة باكستان فلم يكن يريد لعلاقات مصر التى تتوثق مع الهند أن تبدو وكأنه محور ضد باكستان.

وشرح «جمال عبدالناصر» لرئيس وزراء باكستان السيد «محمد على»: «إن مصر لا تريد أن تتورط فى الصراعات بين المعسكرين الكبيرين، وأن هذا هو أهم

ما يجمعها مع الهند». ورد السيد «محمد على» قائلا: «إننى أوافق على الابتعاد عن الكتل الكبرى ولكن ليس الآن». ثم مضى يشرح مخاوف باكستان من الهند، وأنها تتحالف مع الغرب لتحصل على سلاح تواجه به عدوانا هنديا محتملا».

وغادر «جمال عبدالناصر» باكستان، فقام بأول زيارة له إلى الهند. وكان أول زعيم أجنبى يخطب فى اجتماع مشترك لمجلسى البرلمان فى دلهى.

ثم واصل «جمال عبدالناصر» سفره إلى باندونج ومعه «نهرو» وتوقفا يوما فى «رانجون» (عاصمة بورما) حتى يتمكن «جمال عبدالناصر» من مقابلة «أونو» بعد كل ما كان بينهما من مراسلات حول اشتراك إسرائيل فى المؤتمر، وليتعرف عليه شخصيا قبل أن تجمعهما لقاءات المؤتمر الكبير.



وبينما الطائرة التى تقل «جمال عبدالناصر» و«نهرو» تستعد للوقوف فى المكان الرسمى للاستقبال فى «رانجون» التفت «جمال عبدالناصر» من النافذة فإذا هو يجد «شوين لاى» - رئيس وزراء الصين الشعبية العتيد - واقفا إلى جوار «أونو» يستعدان معا للترحيب بـ«جمال عبدالناصر» و«نهرو»(١).

ولم تكن مصر حتى ذلك الوقت قد اعترفت بالصين الشعبية. وكان الاعتراف بالصين الشعبية فى ذلك الوقت مسألة بالغة الحساسية بالنسبة للولايات المتحدة. وربما تصور «نهرو» أن «جمال عبدالناصر» يحرجه أن يلتقى بـ «شوين لاى» فسأله مباشرة: «هل تسىء مقابلتك لشوين لاى لعلاقتك بأحد؟» ورد «جمال عبدالناصر» بأنه على العكس يسعده أن يلتقى بـ«شوين لاى»، ولقد كان ما لاحظه «نهرو» من دهشته لوجود «شوين لاى» هو مجرد المفاجأة بحضوره فى المطار.

---

(١) كنت أول من لمح «شوين لاى» واقفا عند نقطة الاستقبال إلى جوار «أونو» وقلت لـ«جمال عبدالناصر» الذى أدهشته المفاجأة، ونظر من النافذة وكانت الطائرة تستدير استعدادا للوقوف، وبالتالى لم يستطع أن يلمح «شوين لاى» من أول نظرة ثم تحقق من وجوده عندما بدأت الطائرة تتوقف استعدادا لإغلاق محركاتها.

والتقى الرجلان «جمال عبدالناصر» و«شوين لاى» لأول مرة، وكذلك التقى «جمال عبدالناصر» بـ«أونو».

وصحب «أونو» ضيوفه الثلاثة («عبدالناصر» و«شوين لاى» و«نهرو») إلى قصر الضيافة الرسمى الذى أعد لكل منهم طابقا مستقلا فيه.

وكانت بورما تحتفل يومها بعيد المياه التقليدى (الشايجان) ودعا «أونو» ضيوفه الثلاثة إلى الاشتراك فى أعياد المياه بالزى الوطنى البورمى.

وعاد «جمال عبدالناصر» إلى قصر الضيافة مبكرا وقد بدا أن أمرا ذا بال يشغله.

كان «جمال عبدالناصر» قد اتفق مع «شوين لاى» أن يعقدا اجتماعا ثنائيا بينهما فى الجناح الخاص بـ«شوين لاى». وذهب «جمال عبدالناصر» للقاء مع «شوين لاى» وفى رأسه فكرة تلح عليه.

بدأ اللقاء بينهما باستعراض عام للموقف الدولى، وتحدث «شوين لاى» تفصيلا عن ذيول الحرب فى كوريا وعن الحرب الدائرة الآن فى فيتنام وعن سياسة أمريكا فى أن تحل محل الاستعمار الفرنسى فى الهند الصينية. ثم تطرق إلى الحصار الذى تفرضه الولايات المتحدة على الصين الشعبية، وكيف أنها تحاول أن تقنع العالم بأن «شاى كاى شيك» المحاصر فى فورموزا هو الممثل الشرعى لسبعمائة مليون صينى. ثم استدرك «شوين لاى» عند هذه النقطة قائلا لـ«جمال عبدالناصر»: «أرجوك ألا تتصور بما قلته لك الآن: أننى أطلب منك ولو بطريق غير مباشر أن تعترفوا بالصين الشعبية. نحن نقدر موقفكم ونتابع كفاحكم ولا نتصور إحراجكم، ونحن نعرف أن علاقاتكم مع الغرب تمر بمرحلة دقيقة». ورد «جمال عبدالناصر» بأنه لا يستطيع إلا أن يبادل «شوين لاى» صراحته فيقول له بأمانة أن مصر فى هذه الظروف لا تستطيع أن تعترف بالصين الشعبية رسميا. وقال «شوين لاى» إنه يفهم وإنه يقدر. وبدأ «جمال عبدالناصر» يشرح له الوضع فى الشرق الأوسط وسياسة الأحلاف ومحاولة تمزيق الوطن العربى وسياسة إسرائيل العدوانية، ثم توقف لحظة وقال لـ«شوين لاى» إنه يريد أن يسأله سؤالا مباشرا ومحددا وصريحا

عن السوفييت. وتصور «شوين لاى» أن «جمال عبدالناصر» يريد أن يسأله عن القيادة السوفيتية الجديدة بقيادة «خروشوف» واستوقفه «جمال عبدالناصر» ليقول له إن سؤاله المباشر والمحدد والصريح هو: «**هل يقبل الروس أن يبيعوا لمصر سلاحا؟**» ثم راح يروى لـ«شوين لاى» تفاصيل محاولاته المتكررة مع الغرب للحصول على السلاح، ثم كيف أن الحصول على السلاح ـ بعد السياسة العدوانية التى تتبعها إسرائيل الآن ـ قد أصبح بالنسبة لمصر ضرورة حياة أو موت». ويبدو أن «شوين لاى» فوجئ بالسؤال، فقد انتظر بضع لحظات قبل أن يجيب، ثم قال: إنه لا يستطيع أن يرد نيابة عن الروس ولكنه سوف ينقل طلب «جمال عبدالناصر» إلى القيادة فى موسكو. ثم قال «شوين لاى» **إنه «إذا جاز له أن يقدم اجتهادا شخصيا فإن رأيه أن رد الروس سوف يكون بالإيجاب»**. وأضاف «شوين لاى» أنه سوف يعرض الموضوع بعد عودته من بكين على «ماوتسى تونج» وسوف يطلب من «ماو» أن يتصل بـ«خروشوف» مباشرة وسكت «شوين لاى» وبان التردد على ملامحه، ثم قال لـ«جمال عبدالناصر»: «**على أنى أريدك أن تعرف أن هذا قرار خطير تتخذه لأن مثل ذلك لو تم فإن الغرب سوف يشن عليك حملة ضارية. وأنا أعتقد أن قرارك سليم وليس أمامك بديل غيره فى الظروف التى تجتازونها، ومع ذلك فقد أردت بمودة أن أعرض عليك هواجسى**».

وقال «جمال عبدالناصر» إنه لم يتخذ قرارا بعد، وهو لا يستطيع أن يتخذ قرارا إلا بعد أن يعرف درجة استعداد الروس، لأنه فى ذلك الوقت يكون فى موقف يمكنه من إجراء حسابات على أساس سليم.



وانتهى مؤتمر باندونج وغادر «جمال عبدالناصر» إندونيسيا فى طريقه إلى القاهرة عن طريق أفغانستان، فقد توقف فيها للاجتماع مع الملك «ظاهر شاه».

وعاد «جمال عبدالناصر» إلى مصر ليجد الموقف فى المنطقة فى حالة غليان، فقد وجه «نورى السعيد» (باشا) إنذارا نهائيا إلى سوريا مؤداه: «أن العراق يعتبر الميثاق

العربى الجديد بين سوريا والسعودية عملا عدوانيا موجها له». وفى نفس الوقت كان صوت إطلاق النيران يسمع متقطعا على خطوط الهدنة بين مصر وإسرائيل. وكان «داج همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة يحاول أن يجد حلا للموقف المتفجر على الخطوط.

ثم أعلنت باكستان انضمامها رسميا إلى حلف بغداد.

وكان العالم فى انتظار مؤتمر رباعى على مستوى القمة تلتقى فيه الدول الكبرى فى جنيف، وتشترك فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا.

وتقدم الاتحاد السوفيتى على غير توقع بطلب إدراج مشاكل الشرق الأوسط على جدول أعمال القمة الرباعية.

وتلقى «جمال عبدالناصر» ردا من «شوين لاى» مكونا من سطر واحد:

«أبلغنا الرفاق السوفييت أنهم على استعداد».



واستدعى «جمال عبدالناصر» «هنرى بايرود» إلى مقابلته وقال له: **«هذه آخر مرة أطلب منكم فيها أن تبيعونا سلاحا».**

وكانت الإيماءة واضحة.

وفى اليوم التالى كان السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى على موعد مع الرئيس «جمال عبدالناصر» فى زيارة وداعية بعد أن أحيل إلى التقاعد، وتقرر تعيين السير «همفرى تريفليان» سفيرا لبريطانيا فى القاهرة بدلا منه.

وجرى لقاء الوداع فى مجراه التقليدى، وحين تأهب السير «رالف ستيفنسون» للقيام إذا به قبل أن يقوم يقول للرئيس «جمال عبدالناصر» أن «لديه ملاحظة يريد أن يبديها كصديق قديم لمصر». ثم استطرد يقول «سيادة الرئيس، مع أنه ليس اختصاصى أن أتدخل فى شئون مصر الخاصة، إلا أننى عرفت من زميلى الأمريكى ما قلته له أمس، وإذا كان يعنى أنكم تفكرون فى شراء سلاح من مصدر غير غربى.

فإنى أريد مخلصا أن أنبهكم إلى أن هذا لو صح سوف يكون عملا عدائيا للغرب كله يصعب قبوله أو السكوت عليه». ولم يرد «جمال عبدالناصر» مباشرة وإنما مضى يذكر بالاعتداءات الإسرائيلية وبسياسة العدوان التى يتبعها «بن جوريون» منذ عاد من عزلته إلى تولى وزارة الدفاع. ثم أضاف أن معلومات مصر تؤكد أن «بن جوريون» فى طريقه مرة أخرى لرئاسة الوزارة فى إسرائيل، وأن هذا سوف يعنى زيادة التوتر فى المنطقة.



وتلقت القاهرة تقارير من باريس عن صفقة جديدة بين إسرائيل وفرنسا تضم بين ما تضم ثلاثة أسراب من «الميستير ٤» الحديثة.



والتقى «جمال عبدالناصر» فى احتفال أقامته السفارة السودانية فى القاهرة بالسفير السوفيتى «دانييل سولود». وقال السفير السوفيتى للرئيس «جمال عبدالناصر» إنه «اتصل بالرئاسة قبل نصف ساعة ليطلب موعدا لأن لديه رسالة خاصة من رئيس الوزراء «بولجانين»!

وحدد له «جمال عبدالناصر» على الفور موعدا فى صباح اليوم التالى، وجاء «سولود» برسالة «بولجانين» وملخصها **أن الاتحاد السوفيتى على استعداد للتباحث مع مصر فى مسألة توريد السلاح،** وإن كان يرى «ضرورة إبقاء أى اتصالات تجرى سرية، حتى لا يؤثر ذلك على جو مؤتمر القمة المقبل فى جنيف».

وبدأت الاتصالات فعلا وعقدت جلسات فى بيت تحوطه حديقة واسعة فى المعادى، وكان طرفاها فى المرحلة الأولى: **الملحق العسكرى السوفيتى فى القاهرة من ناحية، ومن الناحية الأخرى مساعد رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى.**

وتحركت العجلة. تدور بهدوء وبطء ـ لكنها تدور!